الرفض المستمر

•

لا شك في ان ما رفض في السابق بالرغم من كل شيء وخاصة بالرغم من الارادات والقوى الخارجية مهما كان تفوقها سيرفض الان وسيظل يرفض في المستقبل مهما تنوعت الارادات والقوى الخارجية ومهما بلغ تفوقها .

ان الرفض العربي للوجود الاسرائيلي سيزداد عمقا ويتوسع ليشمل رفض المصدر الذي جاء منه ذلك الوجود والمصدر الذي اقام ذلك الوجود والمصدر الذي يستمر في محاولة فرض ذلك الوجود على العرب .

فالعرب مؤمنون ربما اعمق ايمان في التاريخ وربما اعمق ايمان عند أي شعب من الشعوب بأن الحق العربي في فلسطين كان وهو الان وسيظل في المستقبل نقطة التقائهم وتوحدهم لاستعادته .

والعرب هم الان كما كانوا في السابق اشد الفرقاء وعيا لحقيقة ما جرى وما يجري وما سيجري .

ذلك ان المنطلق العربي في النظر الى القضية كلها يختلف اشد الاختلاف عن المنطلق غير العربي في النظر الى هذه القضية .

فالعرب ينطلقون من كون الوطن الفلسطيني كجزء من بلادهم كان ولا يزال ضحية تآمر ارادات وقوى خارجية عملت وتعمل في تجاهل تام للحق والعدالة متناسية انه مهما حدث ومهما تأخر الرد العربي فلن يعني ذلك ان الرد لن يأتي او ان اصحاب الحق قد تنازلوا عنه او انهم استسلموا للقوى والارادات التي فرضت عليهم وجودا ضد وجودهم .

وكما ثبت خلال العشرين سنة الماضية سيظل يثبت خاصة لمتجاهلي الحق والعدل في قضية فلسطين ان الوجود الاسرائيلي المرفوض من المنطقة العربية هو سبب متاعب وتعقيدات محلية واقليمية ودولية تزداد وتتفاقم كلما ازداد تجاهل الارادات والقوى الخارجية للحق العربي والارادة العربية .

والارادات والقوى الخارجية لا تستطيع ان تفرض على العرب امرا واقعا في قضية فلسطين مهما تعددت المحاولات ومهما تنوعت تلك الارادات وتلك القوى .

والغرب المتمثل الان بالولايات المتحدة وبريطانيا لا بد وان يضطر الى التسليم بأن تجاهل الحق والعدل سيظل يتفاعل الى ان يلحق بالمتجاهلين ضررا يعادل او يفوق ما سيلحق بالذين تم تجاهل الحق والعدل لمصلحتهم .

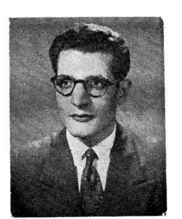
والتاريخ ــ خاصة تاريخ الشعوب وقضاياها الاساسية ــ لا يكتب لا بيوم ولا بأسبوع ولا بسنة .

واخطر ما يمكن ان يقدم عليه الغرب بقيادة اميركا وبريطانيا هو الحكم على التاريخ استنادا الى يوم منه او اسبوع او سنة .

فالحق كالايمان سيظل قادرا على نقل الجبال مهما تأخر احقاقه ومهما اعترضته الارادات والقوى الخارجية .

ميشال ابو جوده

جريدة « النهار » بيروت



الدكتور محمد رجب البيومي

كيف يفتشون على المدارس

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي

* * *

كان مفتش التعليم – ببعض القرى المصرية – قبيل الحرب العالمية الاولى وما بعدها ، لا يجد من وسائل المواصلات غير الدواب ، فكان على كل مدرسة يحل بها ان يهتم ناظرها باعداد مطية ممتازة يستقلها الى المدرسة المجاورة ، ووراءها فراش المدرسة يلاحق خطواتها في ادب واكبار حتى تؤم المكان المختار فيرجع بها من حيث جاء ، وكان دخول المفتش القرية الصغيرة وقد ارتدى قفطانه اللامع تحت جبته الزاهية ، واكبا حماره المسرج الفني ووراءه تابعه الامين مهرولا لاهثا ، كان دخوله هذا موضع التفات القرويين ، ومجال حديثهم المكبر ، فهذا يتحدث عن سمعته وذلك يفسر ما يشي به وجهه من غضب ورضا ، فاذا دخل الفصول المتواضعة ، واكثرها من اللبن الهش قامت المدرسة وقعدت ، واخذ الناظر المسكين يتوسل اليه متتبعا لفتاته ، ومستوحيا اشارته ، اما المدرسون فقد غشيتهم هيبة لا يضائلها قليلا غير تلاوة فاتحة الكتاب في السر ، والتوسل بأنبياء الله ان يمر اليوم العصيب مرور الكرام من الايام ! فاذا انتهى اليوم توجه السيد المفتش الى منزل العمدة ليتناول عنده الطعام ، فهو وحده الذي يستطيع ان يقوم بواجبه ، وانه ليجلس اليه في مضيفته بعيدين عن الناس كمن يتحدثان في موضوع جلل ترتبط به مصائر الانام ، فاذا مر قروي بهما تطلع بعيدا بعيدا ، وقد اسرع في سيره متهيبا ان يدنو من حرم اقدس مهيب ! وقد تحين الصلاة فيخف الزائر مع المضيف الى بيت الله ، ويصليان وحدهما في الصف الاول ، وقد تباعد العامة حذرين ان يقفوا الى جوارهم ، كأن مساجد الرحمن مدارج متفاوتة تؤمن بمبدأ الطبقات! فاذا انتهيا من العبادة اخذا سمتهما الى مكان الضيافة ثم الى غرفة النوم حيث ينهض اعتى الخفراء خارج الحجرة لحراسة المفتش الزائر مترقبا ان يسمع تصفيقة هينة تدعوه ، فيسرع الى اجابة مطلب يعن ، فاذا انقضى الليل وبدت تباشير الصباح اخذ ينقر الباب نقرات خفافا ، لينهض النائم بعد ليل هنيء ! وما يكاد الرجل يتوضأ ويصلي ويتناول الافطار ، حتى يسرج الحمار الفخم ويلجم ، ويأتي التابع الممتثل فيلاحق الدابة الى المكان الجديد

هذا وصف موجز لزيارة السيد المفتش ، في سالف العصر والاوان ، وقد علم منه انه كان لا ينبس ببنت شفة ، بل يدخل المدرسة كما يخرج مكتفيا بتحريك الحدقة ، فاذا جاوزها فالى اشارة اليد ، وعبوس الوجه ، وكان الحمار لا يتجاوز مهمته الاساسية في تيسير التنقل من قرية الى غيرها ، ولكن مرور الزمن نسبيا قد طور التفتيش تطورا صار معه السيد المفتش يستطيع النطق ببعض الكلمات وصار معه الحمار ذا رسالة اخرى غير تهوين الاسفار ، وكيلا يظن القارىء أني أضرب في شجون من التوهم فسأدع غيري يتحدث اذ انقل عن كتاب اصدرته لجنة النشر للجامعيين عن بعض القرى في الصعيد ما نصه وكان يزور المدرسة مفتشان شيخان ، احدهما من مجلس المديرية ، والاخر من وزارة المعارف ، ومع ان حضور واحد منهما كان ينشف ريق الاطفال دائما ويلقي الذعر في قلوبهم ، فوق ما يربك المدرسين والمدرسة ويخلع عليها ظلا قاتما وجوا خانقا فان مفتش الوزارة كان مصدر رعب اكبر من مفتش المجلس .

كان رجلا فارعا اسمر الاديم قاسي الملامح حاد النظرات يخيل اليك دائما انه حاقد على كل شيء ما ، وانه يصرف انيابه من الفيظ الكظيم ، ولما كان مفتش الوزارة لم يكن بد ان يخلع على نفسه وعلى زيارته اهمية مفتش المجلس ، لذلك كان يبدو رزينا اكثر من اللازم عنيفا قاسيا في حركاته وكلماته واشاراته ، وكانت جبته وقفطانه المتسدلان على بدنه الفارغ يزيدانه هيبة وهولا ، وكان يبدو على المدرسين فزع اكبر فينتقل منهم بالعدوى الى التلاميذ حتى لتبدو ساعات وجوده بالمدرسة كأنها دهر طويل ، وكأن الزمن لا يمر الا ببطء شديد .

اما الحادث الفذ الذي لا ينسى فهو هذا الحادث .

كانت الدراسة جارية كعادتها في هينة وتؤدة ، الجو قائظ في نهاية العام ، والتلاميذ خاملون ، والمدرس قد ثقلت عليه جبته فتخفف منها والقاها على مسند المقعد ، وثقلت عليه عمامته فأمسك بها من مقبض الزر

في رفق كيلا تنتكث ، والقى بها في قمطر التلميذ الاول، وجلس على كرسيه في تراخ ظاهر ، وباعد ما بين فخذيه، فانفسخ القفطان وبدت منه تكة السراويل المتدلية في غير ما كلفة .

وبينما الوقت يمر ، والدنيا هادئة ، والجميع في تهويمة لذيذة ، اذا بشبح طويل فارع يقفز من النافذة متدليا منها الى حجرة الدراسة فيصبح معهم في لحظة ، وريع التلاميذ ، وجمد الدم في عروقهم ، وشخصت ابصارهم الى الشبح المتسلق ، وندت منهم صيحات مذعورة ، واضطرب المدرس وقام يمسك عمامته بيد ، يحاول ان يرتدي جبته باليد الاخرى فلا يستطيع ، أما الشبح فقد انفرجت ثناياه عن ابتسامة صفراء كالحة ولسانه ينطق في تهكم مر ، وهو يهز راسه هزا دائما ، ما شاء الله ما شاء الله ماذا ؟

انه المفتش مفتش الوزارة قد اوقف حماره الذي يركبه عادة للحضور من البندر الى القرية ، أوقفه تحت النافذة ، وانصت ، ثم قفز على ظهره واقفا فأصبح قريبا من النافذة ثم تسلقها ليضبط كل شيء ، وكانت هذه طريقة مبتكرة في التفتيش !!

لقد فهم **هذا المربي الكبير** ان وظيفته هي الضبط والضبط وحده لا التوجيه ! ولو ان المدرس كان قد ترصده ساعة قفزه من الشباك ورماه بآلة حديدية قاسية، ما آخذه القانون في شيء ، لانه يقوم بعمل مريب يفعله اللصوص وقاطعو الطريق ! ولكن الوعي التربوي لدى المفتش الفظ لم يكن ليستطيع ان يصور له بشاعة ما يرتكب ، كما لم يكن هذا الوعي لدى المدرس يستطيع ان يقنعه بشذوذ ما ارتكب الزائر الضيف حين اتى البيوت من غير ابوابها ، وقد يكون المفتش ممن حرموا الانتفاع بدروس التربية الحديثة فصدر عن حماقة واسفاف !! ولكن مما يدهش القارىء ان يكون كثير ممن لقنوا دروس التربية في فرنسا وانجلترا وسويسرا في بعثات عالية ثم زاولوا التفتيش بالمدارس المصرية ، لا يختلفون كثيرا عن غيرهم في فهم وظيفة التفتيش ! واذكر اني سمعت ما القى في حفلة تأبين الاستاذ احمد العوامري في مجمع اللغة العربية بمصر ففاجأنا الاستاذ زكي المهندس في كلمة التأبين بما يدل على ان خريجي المدارس الاوروبية من المفتشين كانوا يبذلون جهد الجبابرة في ترقب المفاجأة وانتهاز المباغتة حين يفتشون على المدارس ، ومن ذلك ما حكاه الاستاذ زكي المهندس عن الاستاذ محمد شريف سليم المربي اللغوي الفاضل اذ قال في كلمة حافلة نشرت بالجزء الحادي عشر من مجلة المجمع :

« وكانت التعليمات في وزارة المعارف تقضي ـ يومئذ ـ ان تكون زيارات المفتشين للمدارس زيارات مفاجئة ، وكان المفتشون يلقون من هذا العنت والمشقة والحرج ، وكانوا مضطرين ان يعملوا الحيلة وان يصطنعوا الوسائل لتتم هذه الزيارات المفاجئة على ما تبتغيه الوزارة. وبخاصة في الريف حيث لا يستطيع المفتش مهما حاول ، ان يستخفي من الناس ، وللمرحوم الشيخ شريف في باب المفاجآت نوادر وحيل ، كان رحمه الله اذا انتوى زيارة الاسكندرية للتفتيش استقل ذلك القطار البطيء الاعرج الذي يغادر القاهرة قبيل منتصف الليل فيصل الى الاسكندرية بعد الفجر بقليل ، وكان الشيخ يقضي هذا الوقت المبكر في مكان قصي بعيدا عن اعين الرقباء من النظار والمدرسين فاذا ما حان وقت الدراسة قصد الى المدرسة مستخفيا عن الانظار يشق اليها الطرق الملتوية والدروب المنعرجة والمسالك الضيقة كيلا يراه احد فيفضح سره ، ويفسد عليه امره ، ثم اذا وصل الى المدرسة وقف بحيث يستطيع ان يسجل على المدرسين مواعيد حضورهم » !

كانت المفاجأة اذن نظاما مفروضا ! وقد انكره الحصفاء من رجال التربية فقضى عليه من الناحية الرسمية ، ولكنه ظل عالقا بنفوس المفتشين جيلا بعد جيل ، وقد تبلور في صورة اخرى هي تلمس الاخطاء وتهيئة السبل اليها اذ لم تتح للنظرة الاولى ، والسكوت عن المحاسن او اقتضاب الحديث عنها اقتضابا يوحي بالعداء ، مع تجويف للهنات واشباع مفرط للتصويب والتصحيح ! واذا كان الانسان ـ كل انسان ـ في اعماقه يكره النقد كراهية تتأرجح بين الشدة والاعتدال حتى لو وجه من صديق مخلص توجيها لا يتوقف عليه عاقبة ! فما ظنك بالنقد يتوجه به رئيس الى مرءوس سيضعنه تقريرا مهما يحدد مستقبله في كثير من الملابسات اقول اذا كانت كراهية النقد داء نفسيا متغلغلا في الاعماق مهما اكتسب مسحة التهادن الظاهري عند قوم فان الموقف حينئذ يتطلب فوق الانصاف العادل مرونة الرئيس وتسامحه وسعة صدره ، ولباقته في التوجيه والتخطئة بحيث لا يجرح كبرياء مرءوسه ولو كان بالنسبة اليه تلميذا ناشئا ، مع انه في اكثر الاحوال زميل متمرس يفهم ما يقال ، وينتظر من رئيسه ان يعرض عليه الجديد من الراي والطريف من الخبرة في صورة تقنعه بجلال التفتيش وخطر الرياسة ! ولا ننكر ان القلائل من المفتشين يتمتعون بالاستاذية الناطقة بالعلم الحافلة بالذوق ، اللبقة في التوجيه ! ولكن ليت شعري ما تفعل هذه الاقلية امام حشود زاحفة لا يجد لديها المدرس الناهض ما يقنع عقله من رأي او يشفي صدره من بحث او يريح نفسه من ذوق !. بل يفاجأ بانسان يدخل الفصل ـ في اللغة العربية ـ مثلا ، ليسأل في القواعد النحوية ، ولا بد ان يخطىء التلاميذ مهما بذل مدرسهم الجهد ، وهنا يتبرم المفتش في ضيق ، وينظر الى الطلاب مغيظا منكرا ، لان نائب فاعل اعرب فاعلا ! وكأنه اكتشف جريمة نكراء فاذا جاء دور النصوص الادبية واخطأ الطالب في ضبط كلمة

من بيت ، ـ ولا بد ان يخطيء الطالب ـ فالخطر عظيم ، والامر جلل ، وستدرك عبقرية الزائر الكبير هذا الخطأ الجلل وسيتحدث عنه فيطيل ثم يسارع بتدوينه في دفتر التفتيش .

ودفتر التفتيش مما يحسن ان نقف لديه بعض الوقت ، فهو بحجمه المستطيل الضخم ، ولونه الاسود القاتم ، وموضعه من مكتب السيد ناظر المدرسة ، مما يبعث الاكبار والرهبة في كثير من النفوس ، وقد كنت في سنتي الاولى بالتدريس ، انظر اليه وكأنه اللوح المحفوظ ، وانا اتصور قبل قراءته انه يحوي من الارشاد والتوجيه خلاصة الخلاصة مما نم عن تجربة عميقة ونقد دقيق موجه ، وتصويب ناضج يمده الاطلاع الشامل ، والمعرفة المتسعة ! اذ انه مجال النقد النافذ لاقلام لها حق القيادة والتعليم ! اقول كنت اظن هذا الدفتر الاسود المستطيل موضع ذلك كله ، حتى عرفته لاول مرة وقد قدم الي لاقرا مستفيدا ثم اوقع مذعنا ، فرأيت اشارات باهتة مكررة تطلب الاعتناء بالتصحيح ، مع وجوب قراءة النصوص صحيحة ، ثم الاهتمام بقواعد النحو ، والدعوة الى مضاعفة الاعمال التحريرية ، ورعاية تحسين الخط مع المناقشة في صور البلاغة واساليب البيان ! رباه أهذه هي النصائح الكلية المبهمة التي يخطها مفتش وراء مفتش، بحيث صارت نسخا مكررة ! ويستطيع الزائر الكريم ان يدونها دون ان يدخل الفصل او يستمع الى المدرس اذ لا بد من اخطاء في القواعد والبلاغة وضبط الابيات ، ولا بد من نقص في عدد الموضوعات التحريرية مما تجب الاشارة التقليدية اليه !

أهذا جل ما يحتويه دفتر مهيب يكتبه المفتشون ويوقع عليه المدرسون وتحفظه مكاتب النظار !!

وقد يلجأ بعض المتحذلقين الى التجديد فيكتب اسماء المدرسين ويخص كل مدرس بنقد ! ولكن اي نقد ؟ هذا ينبه الى العناية بالنحو .وهذا الى ضبط الابيات وهذا الى كثرة الاعمال التحريرية ! وبمعنى اخر ترى الاسماء قد بعثرت بين السطور ، ليقع كل اسم جوار سطر مما يكتب عن الاخرين مجملا دون اسماء ! فاذا جاء مجلس التوجيه فقوامه التنبيه الى اخطاء لغوية في موضوعات التعبير التحريري ! يا لله من الحرص على هذه اللغويات ففي سبيلها يترك السيد الكبير عناصر الموضوع ومحور افكاره وتسلسل معانيه وخروجها عن دائرة المطلوب او انتماءها اليه ! كل ذلك لا دخل له ـ شهد الله ـ في حسابه ! انما الحرص كل الحرص على تصويب أمثال كلمة البؤساء بأن تكون البائسين وكلمة ساهم بأن تكون اسهم ، وقد جمعت لذلك كتب دونها بعض المرتزقة حين علموا انها بغية المفتش ، ووسيلة مرضاته فتهافت عليها المدرسون تهافتا كان موضع التندر والاشفاق معا من النابهين !! وقد بذلت كما يعرف اخواني جهدا كبيرا في محاربة هذه الشكلية الباهتة في مدرستي حتى تضعضع بناؤها الاثم ! وكنت افكر في سر هذا الاهتمام باللغويات المتخفية دون غيرها لدى المفتشين جيلا بعد جيل، حتى اهتديت الى ان فضيلة اللغوي الاكبر الشيخ حمزه فتح الله كان أستاذ التفتيش بنظارة المعارف ثم اعقبه جماعة من متنطسي اللغة يتقدمهم حفني ناصف واحمد العوامري وعلي الجارم ، فوجهوا اهتمامهم الكلي الى سلامة اللفظ وحده ، واخذوا يدخلون المدارس ليستشيروا لسان العرب والقاموس المحيط. وقد ينعمون بالعطف على المصباح ومختار الصحاح على وجه الاستئناس لا الاستدلال ثم خلف من بعدهم ظنوا سلامة اللفظ كل شيء ، وقد رأوا مفتشيهم ايام كانوا مدرسين لا يجيدون عنه فهم على آثارهم يهرعون !!

قد يظن البعيد عن حقل التربية والتعليم أني اتعمد جانبا من الشطط المسرف والغلو المفرق ، في الحديث ، ولكن القريب من هذا الحقل الفسيح يعلم ما اعلم ، واذا كان الاعتراف سيد الادلة في منطق القانون ، فاني اترك لمفتش كبير واديب شهير هو الدكتور زكي مبارك رحمه الله ان يتحدث عن التفتيش كما لمسه ورآه ، واذا كان الاديب الكبير قد اجرى الحديث عن نفسه فما اظنه في ادبه وعلمه وعمقه كان يتورط فيما اشار اليه من التزمت المقيت ، انما درس الدكتور زملاءه المفتشين عن كثب ، وشاهد ما شاهد عن تجربة ، فتعاظمه ان يكون التفتيش محط هذه الصغائر ، ثم اختار ان يتحدث عن نفسه مصورا نقائص غيره ! وذلك ضرب في الكتابة قد اشتهر به من ادباء الجيل الماضي فريق يتصدرهم المازني والبشري وزكي مبارك ، وقد صاحبت الدكتور رحمه الله وعرفت عنه سموا عن الاسفاف وترفعا عن الصغائر ، وتفطرسا محمودا على المتكبرين من الرؤساء لا المتواضعين من المرءوسين ، فاذا تحدث الان عن نفسه فعن تجربة قريبة لما رأى من سواه ، ولن يكون الامر غير ذلك الا اذا نهض احد المدرسين ممن فتش عليهم الدكتور فخالف ما ارتأيناه !

قال الدكتور في سلسلة احاديثه عن ليلى المريضة بالعراق والنقل هنا عن مجلة الرسالة الصادرة في ٢٨ فبراير سنة ١٩٣٨ ببعض التصرف اليسير :

« منصب المفتش منصب عظيم فمن كان في ريب من ذلك فليسمع ! دخلت المدرسة التوفيقية صباح يوم فهالني ان ارى مظاهر القلق في جميع الصفوف ، فقلت للناظر : ما هذه الجلبة فقال ان التلاميذ يتطلعون من النوافذ ليمتعوا انظارهم بسعادة المفتش ، فقلت في تعجرف : هذا ادبما بعد الحرب وكان الواجب ان يقهرهم الخشوع .

ودخلت يوما المدرسة الابراهيمية فوجدت مدرسا كان من زملائي ، وكان فيما اذكر ابصر مني بالدقائق

النحوية واللغوية فأبيت الا أن اتعجرف عليه واستطيل ، وجدته يطلب من التلاميذ ان يكتبوا عن فوائد السينما ، فقلت لماذا لا تقول الخيالة ، ورايته يمر على كلمة التطور في دفاتر التلاميذ فلا يصححها فحاسبته اشد الحساب، فقال ان الله يقول في كتابه العزيز « وخلقناكم اطوارا » فقلت نعم ان الله خلقنا اطوارا ومن اجل ذلك لا يصح ان نتطور يا استاذ .

وقد هداني اللؤم ان اقترح على وزارة المعارف ان تعهد الي التفتيش في المدارس الاهلية والاجنبية ، لان التفتيش في مدارس الحكومة يضايقني قليلا ، اذ كان المدرسون في المدارس الثانوية وقد ثبتت صلاحيتهم للتدريس منذ سنين ، وامثال هؤلاء لا يمكن قطع ارزاقهم بسهولة ، اما المدارس الاجنبية والاهلية فيمكن فيها زعزعة مركز المدرس باشارة او اشارتين وكذلك استطيع السيطرة بلا عناء .

ومن مزايا التفتيش ان يحفظ التلاميذ اشعاري بفضل « لباقة » المدرسين ، واذكر اني دخلت يوما احدى المدارس فأردت ان اختبر الطلبة في المحفوظات ، فرأيت تلميذا قيل انه ابن وزير سابق ، فقلت اسمعني يا شاطر بعض ما تحفظ فابتدأ يصيح .

قال سعادة الدكتور زكي بك مبارك :

يا جيرة السين يحيا في مرابعكم　　فتى الى النيل يشكو غربة الدار

فخشيت التورط في سماع شعري فأشرت على الطالب ان ينشد شعرا غير هذا فصاح

وقال سعادته ايضا :

نسيتم العهد واسترحمتم　　من لوعة الحافظ الامين

فأسكت الطالب وقلت للاستاذ : اليس لدى الطلبة محفوظات غير اشعار زكي مبارك ؟

فقال : لقد اعطيتهم خمس قطع من اشعار زكي مبارك ، وثلاث قطع من اشعار علي الجارم ، فحفظوا شعرك وصعب عليهم حفظ شعر الجارم .

وانا موقن بأن الطلبة والاساتذة يسخرون منا ، ولكن ما الذي يمنع من ان نستفيد من فساد المجتمع .

ولم يكن من الصعب ان اجلس في مكتب تفتيش اللغة العربية ثم انقد تقارير المدرسين ، جاءني يوما تقرير من الاستاذ الاول في مدرسة اسيوط الثانوية فأخذت التقرير الى البيت ، وكتبت تقريرا بما في التقرير من اغلاط لغوية ، ورجعت في اليوم التالي فحدثت جميع الموظفين بهذه الفضيحة فلم ينقض اليوم الا وانا عمدة المحققين وجهبذ المدققين وكان لي اسلوب في مضايقة المدرسين اسلوب بديع ، ولكني لم ابتكره مع الاسف ، وانما ابتكره شيوخ لنا من قبل ، كنت آخذ كراريس التلاميذ الى البيت ، وادرس موضوعا واحدا من كل كراس ، ادرسه بدقة وامامي المعاجم والمراجع لابين ما فات المدرسين من اغلاط ،وانسى ان المدرس لا يستطيع ان يستشير المعاجم في كل كراس ، ولكن ماذا يهمني ؟ المهم ان يشيع في بقاع الارض اني محقق مدقق لاكون خليفة العوامري بك على الاقل وذلك مغنم ليس بالقليل ، وهو بفضل هذه الحذلقة مضمون !

ومن عادتي ان ادعو المدرسين الذين افتش عليهم «للتفضل» بانتظاري في المدرسة بعد خروج التلاميذ ، واكون قد تغديت واخذت نصيبي من القيلولة ، ويكونون قد اكتفوا بما يتيسر من الشطائر الجافة، وقضوا الوقت في التحضير والتصحيح وتكون النتيجة ان اقدم عليهم بعافية ، وان يتلقوني وقد نال منهم الاعياء فارغي وازبد ما شاء التعسف ويصدهم التعب عن درء الشر بالشر فيسكتون » .

هذا بعض حديث الدكتور مبارك ! وهو اوضح من ان نشفعه بالتعليق اذ جاء اسلوبه شفافا ناصعا لا يخفي شيئا في مطاويه وهو بعد ذلك يذكرنا بشيء عجيب يذكر الان في مجال التندر والترفيه ! ذلك هو حرص بعض المدرسين على تدريس شعر الاستاذ الجارم وتحفيظه للطلاب ، وكان لهم في ذلك غرائب واضاحيك .

كان مدرس الادب المعاصر لا يجد عنتا ما في اختيار قصائد الجارم لان المفتش الكبير اديب محدث يدخل انتاجه الشعري في صميم النصوص الادبية ! بل هو امير الشعراء وخليفة شوقي عند نفر من هؤلاء يزعمون ذلك له مخلصين او غير مخلصين ! فما ان يلج الشاعر الكبير باب الحجرة حتى يطالع على السبورة .

نصوص ادبية : قال نابغة الادب وصناجة العرب الشاعر الكبير الاستاذ علي الجارم حفظه الله في الاحتفال بالاذاعة المصرية :

سارى الهواء ملكت اي جناح　　وحللت اي مشارف وبطاح
وباي ناحية حللت فانثني　　القاك بين توثب وطماح

وتمضي القصيدة حتى تملأ السبورة .

فاذا افاض المدرس في شرح القصيدة ، وعرض ما تضمنت من صور البيان والبديع، وروائع التنقل بالاسلوب من نداء الى استفهام الى ثمن الى طلب الى خبر ودعاء استأذن الزائر الكبير ليختبر محفوظات الطلاب فيسأل وقد دار بعينه الشاعرة في الوجوه . ماذا اخذتم قبل ذلك ! فترتفع الايدي على القماطر متلهفة فيختار طالبا لينهض صائحا وقال نابغة الادب وصناجة العرب الشاعر الكبير الاستاذ علي الجارم حفظه الله في الغزل :

مالي فتنت بلحظك الفتاك　　وسلوت كل مليحة الاك
يسراك قد ملكت زمام صبابتي　　ومضلتي وهداي في يمناك

فاذا تلا عدة ابيات اقعده الزائر المعجب ، وطلب غيره فنهض ليقول :

قال نابغة الادب وصناجة العرب الاستاذ الكبير علي الجارم ايضا في الرثاء

غدا في سماء العبقرية نلتقي　　وتجتمع الانداد بعد التفرق
ونذكر عهدا كالازاهر لم يطل　　وودا كمشمول الرحيق المصفق

نيسان في خليج نصف القمر

●

نيسان في خليج نصف القمر
زنبقة مخضلة بالكوثـــر
فاتنـة قد خجلت من عريها
فاتخذت ثوبا ضياء القمر
مساؤه ساقيـة مـن عنب
حباتهـا طـوع يـد المعتصر
قبل نيسـان ثنايا موجـه
مبتسمـا ثم انثنى في خفر
وانت يا حبيبتـي رغم النوى
شلال فيروز سعى في فكري
عيناك يا وشوشة الشحرور لي
قـد رنتا عبر جفـون الابحـر
فاتكأت فـي مقلتـي يابسـة
لؤلؤة تقتـات يتـم العبـر
ومر نيسان خريفـيَّ الخطى
في خاطري يسعى حزين الصور
يا حلوتي ما فعـل الله بنا ؟
قد عصفت فينا ريـاح القدر
والكون كل الكون لي ان كنت لي
ان كنت لي ألهبت حسَّ الحجر
تثاءب النـور علـى شاطئـه
منكرا يشكـو الـى منكسـر
وانجم قـد فرطت حباتهـا
لونت المـاء بوهـج الجوهر
وموجة بحَّت كسربي حجـل
تعثرا فـي الشاطـىء المنحسر
وحشرج الشاطىء من لهفته
لما انثنت : انتظري .. انتظري
تافهة دنيـاي احلامي سدى
يا حلوتي لـولاك لو لم تظهري
قصتنا .. مواسم .. مواسم
فصولها تـروى شتـاء البشر

الدمام ـ السعودية

عبد الله عنجريني

خليج نصف القمر هو شاطىء رملي ومسبح مشهور على شاطىء الخليج العربي في السعودية ويبعد ٣٥ كم عن الدمام ويدعوه الناس باسمه الانكليزي

The half moon bay

ويمضي في القراءة فيشترك الزائر الملهم في مناقشة الالفاظ ، والبحث عن التشبيه المفرد والتشبيه المركب ، ويخرج منتشيا بأربع كؤوس من قصائده الجياد

حدثني مدرس اول بالمعاش عن موقف له مع الشاعر الكبير وقد شاءت ظروفه الا يدرس الادب المعاصر بل يشرح نصوص العصر الجاهلي والاموي وفق مقرر الصف الذي يدرس منهجه ! قال الاستاذ ورأيت اخواني يكسبون قلب الشاعر باختيار قصائده والمنهج لا يسمح لي بالتودد ، ففكرت في ان آخذ ديوان الجارم ، واجمع ابيات الاستعارة والكناية والتشبيه واضعها في التطبيق التحريري ثم حرصت على ان اعرض على الجارم كراسات التطبيق قبل زيارة التفتيش ، فراجعها في ابتسام مشجع واخـذ يمازحني حين تعرضت في سؤال النقد للموازنة بينه وبين الفرزدق.

قلت ، دهشا : وكيف وازنت بينه وبين الفرزدق ؟ فأجاب الاستاذ في ثقة : كان نص السؤال ما يلي :

اكتبي موازنة ادبية بين قول الفرزدق :

اولئك آبائي فجئني بمثلهـم   اذا جمعتنا يا جرير المجامـع

وقول الشاعر الكبير الاستاذ علي الجارم حفظه الله:

هم جـدودي وايـن مثل جدودي   ان تصدى مفاخر بالجـدود

فراجعت البيتين في خاطري ثم قلت : ولكن بيت الجارم لن يصمد امام بيت الفرزدق ؟ فكيف واجهتم الرجل بذلك ؟

فقال الاستاذ متحديا لا يا اخي ان ذكر كلمة جدودي وتكرارها في بيت الجارم دليل السبق والفلج . اما بيت الفرزدق فوقف بالفخر لدى الآباء دون الاجداد وان الشرطية في قوله تدل على الشك واذا في قول الفرزدق تدل على اليقين ! والشك اقوى شاعرية في هذا المجال.

سألت ثم ماذا ؟ فقال الاستاذ مستنكرا : وهل ترى مزيدا بعد ذاك !

تلك فكاهة نختم بها المقال ، وكم لها من امثال .

الفيوم ـ دار المعلمات

محمد رجب البيومي



في حمى لبنان

لحافظ جميل

•

وفيت لشعري عن يقين وايماني ... وهل هو الا نبض حسي ووجداني

عذلت خصومي في العراق وليتني ... بدأت باصحابي وصفوة خلاني

يبادلني ازكى التحايا وفيهم ... واشكو له من صادق الود حرماني

ورب اخ لم يعرف الحب قلبه ... تعلمت منه كيف اعرف اخواني

ومحترز مني كأن تعلقي ... بصحبته ادهى من السرطان

رآني ففض الطرف عني معرضا ... وما ضره لو هش كذبا وحياني

وسيان عندي نافر الود معرض ... وآخر مجبول على الروغان

واين الذي يخفى على ضميره ... ولي ألف عين ان تبصّره عينان

كفاني من التعبير وجهي صراحة ... اذا كان للخبّ المخادع وجهان

ومنتقد شعري ويا رب ناقد ... شهدت له باللغو والهذيان

تناولني قدحا فاعلى مكانتي ... وشرف من قدري ونبّه من شاني

وما انا بالمسوس عقلا فانبري ... لتانيب اطفال وتوبيخ صبيان

سلوا الجاهل المغرور اين مكانه ... من الادب العالي واين مكاني

تملكه حب الظهور وفاته ... بأن سخيف الرأي من يتحداني

لك الله يا شعري ايجحد كافر ... بآياتك الكبرى ويلمزها شاني

لعلك ما تنفك تذكر اخوتي ... من الشعراء الخالدين واقراني

ولاح لحاني كيف اجفو احبتي ... وكم من عدو بالمودة يلقاني

الا لا اتاح الله لي من يحبني ... اذا كان معنى الحب تدبير عدوان

أبيت لنفسي ان يطول شقاؤها ... بأرض جفاني الكل فيها وعاداني

واي شتيت عن ذويه واهله ... احب النوى لو كان موضع تحنان

تركت لاهل الفضل سابغ فضلهم ... على الناس واستغنيت عن كل احسان

واي امرىء رام الحياة كريمة ... وآثر بعد الله فضلا لانسان

يقولون ما شاني ولبنان كلما ... تغنيت فيه جن في الشعر شيطاني

فقلت هبوني فخر بغداد محتذا ... فمن غير لبنان رعاني ورباني

ومن غير لبنان شكوت فرقٌ لي ... ومن غير لبنان بكيت فواساني

ومن غير لبنان اعز مكانتي ... وقد كاد يطويني العراق وينساني

ومن غير لبنان تحديت باسمه ... تجبّر ملك او تعسف سلطان

ومن غير لبنان اذا ما وهبته ... حياتي احال الارز قبرا فواراني

الا فاذكروا لي غير لبنان آسيا ... عليما باوجاعي خبيرا باحزاني

الا فاذكروا لي غيره ان رجوته ... رجوت كريم العون من خير معوان

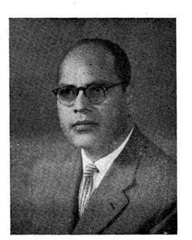
نزلت به غض الشباب فهش لي ... وقربني عند المشيب وادناني

ولذت به في محنتي فاجارني ... وحبب لي طيب المقام ومنّاني

الا حبذا لبنان مهد صبابتي ... وبكر غرامي في شبابي وريعاني
أأنسى اياديه واجحد فضله ... وقد خصني بالعطف منه فآواني
ونور بالعلم الصحيح بصيرتي ... وبدل من جهلي مناهل عرفان
وأذكى أحاسيسي ونمى مواهبي ... وادّى الذي ادّى بحقي فوفّاني
ولقنني شدو البلابل في الربى ... وروضني فرخا على الطيران
عزفت نشيدي في سماه مرفرفا ... على كل مخضل الغدائر فينان
وارهفت سمع الشم من هضباته ... فما هزه لحن شجي كألحاني
مطاري به في حالق الجو سروة ... وارجوحتي اعطاف تين ورمان
ارود المروج الخضر اتلو ملاحني ... وما منبري الا ارائك ريحان
وكم صيحة ارسلت من فوق ربوة ... وساجعة راقصت في ظل بستان
اذا قمت في روض فسبّحت سحرة ... تسمع قبل الفجر صوت اذان
كأني باحلام الدوالي وقد صحت ... تنبه من اطيارها كل وسنان
اعل رحيقي من جنى كل برعم ... ومن كل مطلول من الزهر نديان
واطلع كالفجر الضحوك على الربى ... فاتركها سكرى عيون وآذان
احوّل من حقل لحقل كأنني ... اخوض عبابا من عطور والوان
وما انفك شادي الطير عوني على الهوى ... ففي الليل سماري وفي الصبح ندماني
تميد بي الاغصان بين مرنح ... ومبتهج بالطائر الضيف جذلان
اجيء وامضي من طرير لاغيد ... وارحل عن صاح لآخر نشوان
واصعد آفاق السماء محلقا ... كفاقد الف في ذرى الجو هيمان
واهبط ان آد الطواف قوادمي ... وهل يحمل القلب الكبير جناحان
وان ضج بالشكوى حشاي من الظما ... وقعت على ضرع من الشهد ملآن
سلوها اطافت بالزهور فراشة ... طوافي بها او حومت حوماني
اهش اليها استدر رضابها ... وهل كرضاب الكرم ري لعطشان
واقنع منها بالقليل من اللمى ... وفي الجوف ما فيه من الغليان
سقاها الحيا من مرضعات حوادب ... زكيات انفاس نديات احضان
حوتني فزقتني افاويق كرمها ... على كل رقاق الاسرة ميسان
اذا اخذتني في دجى الليل غفوة ... توسدت زهرا والتحفت بأغصان
ولو قلت يا لبنان هل أنا واجد ... بأيكك عشا قال عيني واجفاني
تهيّب صحبي اذ رأوني مولها ... بلبنان اقضي العمر في هيمان
فقلت صفوا لي غير لبنان جنة ... وجيئوا ولو بعد العناء ببرهان
صفوا لي سوى بطحائه وسمائه ... خيالا لذي وحي ولوحا لفنان
صفوا لي سوى شطآنه سحر ساحر ... وغير روابيه حديقة جنّان
صفوا لي سوى انسامه وظلاله ... شفاء لمصدور وبردا لحران
صفوا لي سواه في الملاجىء ملجأ ... لمن فر من عسف وكاسح طغيان
صفوا لي سواه في المعابد معبدا ... دعا مسلم فيه وسبح نصراني
لاقسم ما لي بعد لبنان مطمح ... وما كان من طبعي الخداع ولا شاني
لاقسم ما فارقت لبنان ساعة ... ولم تك الا ساعة العود سلواني
لاقسم لولا حبه ورجاؤه ... لناديت من يبكي علي وينعاني
الا لا حلا لي بعد لبنان موطن ... ولو كانت الدنيا الفسيحة اوطاني
وهل ضامني يوما بلبنان ضائم ... لابحث في الاوطان عن وطن ثاني
كفاني به ان ارفع الرأس عاليا ... اذا طال ذو عز علي وباهاني
رعى الله من يرعى للبنان حقه ... واكرم به يحنو علي ويرعاني
واحبب بيوم فيه ألقى منيتي ... على ارض لبنان ومن اجل لبنان

بغداد

حافظ جميل



ابـو طالـب زيـان

أنا واصحابي .. في الادب والحياة

بقلم ابو طالب زيان

* * *

اتخذت الجلسات التي اعقدها « انا » واصحابي في منزلي ، طابع التكرار ، وان كنت قد ازمعت في الجلسة الماضية ألا اعقدها ، حفاظا على وقت هؤلاء الاصحاب الذين يستعدون للامتحان ، ويسهرون للاستذكار ، لكن متع اللقاء في هذه الليالي الحلوة ، تكاد تنسيهم ما عليهم من واجب ، وما علي « انا » من لواذ بالصمت ، او توار عن أعينهم في هذه الايام ...

والواقع ان ما يجد من حولي من حوادث الادب ، وصراعات الاقلام ، ومحاورات الادباء في نواديهم ، أو ما يفيضون به في كتبهم ، جعلت اصحابي يلحون علي في عقد هذه الجلسات ، وان اصابهم عطل في حياتهم ، او انصراف عن عملهم الذي احرص عليه « انا » قبلهم ، فهم عدتي وعتادي في مستقبل حياتي ، وهي لا شك آفلة بعد حين ، وان انا تعمدت مغالطتهم ، وبدوت في عز الشباب ، وغاية القوة ، بما احمل من عقل !! ، وما مررت به من تجارب ، وما خضت فيه من معارك قلمية ، لا بدنية ، وخرجت منها بحمد الله يكلؤ في الانتصار ، ويحدوني الفخر والاعتزاز ...

كان اليوم ــ يوم جمعة ــ وشمس الشتاء في هذا اليوم ، تكاد تكون احلى من الغذاء المعد لوجبة الظهيرة ..

في هذا اليوم المبارك ، تسللت من حجرتي كأنه لايراني احد ، ودخلت الحديقة على غير ما اعتدت في مثل هذا اليوم من ايام الاسبوع ، اطهر جداولها ، واروي ما كان في حاجة من اشجارها الى ري ، واشذب بعض اوراقها وبخاصة ما خرج منها على اسوارها وتدلى على الارض..

وعلى حين انا منهمك في عملي هذا، لا افكر في اي شيء، الا أن تبدو حديقتي في أعين أولادي جميلة ، اذا بهم جميعا يحيطون بي ، يحملون في ايديهم بعض كتبي التي اعتدت اطالة النظر فيها ، والوقوف عند بعض سطورها ، او الاشارة بالقلم عند بعض عباراتها .. وكانت زوجي في هذه المرة من ورائهم تحمل « عويناتي » التي تركتها على مكتبي في حجرتي الخاصة ... وعندما التفت الى هذا الجمع ، ورأيت منهم هذا التحفز، تركت ما بيدي وآثرت عقد الجلسة ، واجابة كل منهم على سؤاله ، او سؤله، وانا اصر في نفسي على ان تكون هذه خاتمة الجلسات.. لاننا نقسو فيها على بعض مفكرينا ، ونتناول البعض الاخر بما لا يجب ان نتناوله به ، لا سيما وهو يعتقد في نفسه انه اصبح قمة ، وبلغ النهاية ، ويتأبى على الخضوع والتناول ..!!

قلت : من اتى بكم الي في هذا المكان ، وانا قد تسللت خوف ان تشعروا بي ، او اقطع عليكم ما انتم فيه من الدرس ؟

قالوا جميعا : «أمنا» هي التي دخلت علينا حجرتنا، وحرضتنا على ان نأتي اليك ، ونقضي معك سويعات حلوة في الادب والحياة ، فنحن في حاجة الى السؤال ، ونعتقد انك لا تضن علينا بالجواب ، وبخاصة اننا قد عزمنا على تناول بعض كبراء الادب في انتاجهم واتجاههم ، وليكن ما يكون ...

قلت : أوتحسبون ان يكون شيء من وراء هؤلاء الكبراء ... انهم امامي كالفئران ، احصرهم فيمصيدة ، واخرج من اريد ... واعدم من اشاء ، وامد يدي بالسم لمن احب ان امتع ناظري به ، وهو يموت بطيئا على مر الايام او السنين ...

قالت زوجي : وهي دائما شبه موتورة مني ، الا اذا منحتها ما يصلني من مكافآت ، وهيقليلة لا تفي بحاجاتها، أو لا تفي بما تحرص ان يكون عليه بينها واولادها ... هون عليك .. انت تكلمنا كالحاكم ، او ان شئت كالدكتاتور الذي يخيف ولا يخاف ، من من هؤلاء الادباء الكبار يرضى أن تتصرف في امره او تحكم عليه بأحكامك القاسية ، وربما يكون ما يكسبه اضعاف اضعاف ما يدخل « بيتنا » ، وهو لا يسهر هذا السهر المتواصل ، ولا يتعب هذا التعب الذي تريد ان تنهي حياتك به ..؟!

قلت : وكلي اسف على هذا العمر الطويل الذي قضيته مع زوجي .. ان مقياس الاديب عندك ما يدخل في جيبه او يصل الى يده من مكافآت ؟

قالت : نعم .. ولا شك في هذا ... ويكفي هذا الضياع الذي عايشنا كل هذه السنين ، ونحن نرتقب كل يوم الشهرة والمجد ونتطلع الى السعادة من وراء الادب.. ولكن هيهات ...

قلت : عليك بمثل واحد او امثلة ان شئت لبعض الادباء ويكون لك التسليم بما قضيت ...

قالت ابنتي الكبرى : ما رايك يا ابتاه في قصيدة الاستاذ حسن الصيرفي في رثاء ابيه

قلت : هي قصيدة باكية حقا ، وموجعة صدقا ، الا انني لا اعلم يا بنية ، ان الاب يكون صديقا ، مهما طال به العمر ، لان الاب هو اب ، والابن هو ابن اما ان ياتي الاستاذ الصيرفي ، ويحدثنا عن صداقته لابيه ، فذلك شيء ما احسبه يكون ، لولا انه خيال الشعراء القدامى الذين ولوا ، وولى معهم الشعر ، واصبحوا في خبر كان ... اسمعي يا بنية هذا التاريخ الذي اختاره الشاعر ، واحكمي على مدى هذا الخيال المريض :

اختـرت يـوم مولـدي نهايـة وراحـة لمتعب خفوق
أين الطريق يا ابي فقد خفيت واين كانت الان يا صديق
غابت وغبت وانتهى في لحظة سريعة تاريخنا العريق
أبوة ، اخوة ، صداقة ، فقدتهـا في خفقة الشهيـق

قالت ابنتي الوسطى : وهي تحاول الدفاع عن الشاعر « المغلق » ، ألست قد جعلتنا اصحابك ... وأرى انه لا فرق بين الصاحب والصديق ؟

قلت : مهلا .. مهلا يا حبيبتي .. هناك فرق كبير بين الصاحب والصديق ، فالصاحب قد يخيب ظن الانسان فيه ، اما الصديق فشيء اخر أجل واكبر .. الصديق من الصدق ، وهو الـذي يصدقـك في كل الامور ...

قال ابني ، وهو يتخابث : اجعلنا يا ابتاه اصدقاءك، ولا تجعلنا اصحابك .. فنحن معك ولك ؟

قلت : يوم يفهم الشاعر ، الفرق بين الصاحب والصديق ، ويوم لا تكون هذه المجامـلات على حساب الادب ، اجعلكم اصدقائي على شرط الا اموت في يوم مولد احد منكم ، والا كان نُصيبي منكم هذا النعيب الذي يتمثل في هذه الابيات المرصوصة الخاوية ...

قالت ابنتي الصغرى : وهل اخطأ الاستاذ انور الجندي في مجاملته لصديقه الشاعر ؟

قلت : ان الاستاذ انور الجندي يا صغيرتي ، رجل يجامل كل الناس ، بألفاظ ، هي المجاملة بعينها دون ان يحسب للتاريخ اي حساب ، اذ لا يعقل ابدا ان يكون شعر الصيرفي احد روافد ثقافته ولن يكون في يوم من الايام ، الا انه التواضع والود والمجاملة ...

كان الراحل الشاعر ابو شادي ، يعين البراعم المتفتحة ، ويكلأ العقول الفضة ، ويقف الى جوار النشء في « أبولو » وفي غير « أبولو » ، يبغي تكوين جيل جديد ، ومذهب جديد في النثر والشعر ، ويعطف بالتالي على الفقراء من الذين « يتشعبطون » في عربة الادب .. وقد نجح بالفعل في تكوين هذا الجيل ، الذي ظل يحمل مذهبه الذي كان يدعو اليه في التجديد الى يوم الناس هذا ..

قالت زوجتي : هل الاستاذ الصيرفي فيغنى الان؟

قلت : انه فقير وفقير ، ويحمل على رأسه الفقر ، ويدخر في جيبه الفقر ، فقر المال الذي تريدين ، وفقر الثقافة التي اعنيها ، وان كان يكابر بين الفينة والفينة فيمنحنا خواطر تموت في حينها ، ولو هلل لها الاصدقاء، وذوو الاريحية من المحبين ..

قال ابني : يا ابتاه ، ما معنى قول الاستاذ انور الجندي : وهو يعزي صديقه الصيرفي : « ولقد كان لهذه الابوة الكريمة اثرها في شخصك ، فقد اضفى عليك هذا الاسم ، وعاش حتى رآك شاعرا لامعا ، وكاتبا مشرق الديباجة ، وباحثا متخصصا في الدفاع عن الكلمة العربية ، عارفا بكل ما يصدر في لغة الضاد من تآليف وآثار ، وما يتجدد فيها من مخطوطات ومجلدات » .

قلت : معناه يا اولادي .. لا .. والله العظيم ..

قالت زوجي : أراك تستطرد بنا استطرادات طويلة، نحن نحدثك عن غنى الادباء وثراء بعضهم ، وزينة بيوتهم وعيشتهم الراضية الرضية ...؟!

قلت : الذين يثرون على حساب الادب ، ليسوا بأدباء ، وانهم دعاة ، وفرق بين الداعين والاديب .. فالاديب لا يمكن ان يغنى ابدا ، ولا يثرى هذا الثراء الذي تحبين .. والتطلعات التي يعايشها الاديب ، ويواكبها الادباء ، تحول بينهم وبين هذا النعيم ، لكن الداعية الذي يتخذ من نفسه بوقا للاعلان عن نفسه ، وعن بضاعته ، هو الذي يثرى او يصيبه الغنى من أيسر طريق ...

قالت ابنتي الكبرى : نريد يا ابتاه ان تكون نُصف اديب ، وتعلن عن بضاعتك ويصيبنا الغنى ، ولو من اي طريق ؟

قلت يا ابنتي : لا أحب لنفسي ان اعيش فيركاب احد ، او صنيعة من الصنائع ، فأنا رجل لا اعرف « الوسط » في اي شيء او اي امر من الامور .. فأما ان اقف في الميدان واجاهد هذا الجهاد الذي وطنت نفسي عليه ، واما ان انسحب واسلم الراية لمن يحافظ عليها او الرسالة لمن يبلغها .. اما انك واخوتك تريدونني على ان اكون امعة ، او امضي في الحياة دون اعتبار او رأي ، فهذا ما لا ارضاه لنفسي ، او ترضونه لي بأي حال من الاحوال ... ولا احب ان تكون لي « فيلا » اقيم فيها ، وينظر اليها الادباء على انها ثمرة من ثمرات الدعاية الفجة الرخيصة ، لا الادب العالي الرفيع ، ولا الرأي الناضج السليم ، ولا الاعتزاز بالشخصية ...

براءة آدم

•

حواء لو عرفت
عمر الهوى خيانه
كنت سفحت الجرح
كنت غرزت الرمح
في العار والمهانه
كفارة ومت

دمشق صالح درويش

قالت ابنتي الوسطى : اراك يا ابتاه قد قسوت على الشاعرة : « روحية القليني » في بعض ما كتبته حول ندوة الاستاذ الكبير وديع فلسطين في منزله في العام الماضي ، عندما كان الاستاذ فؤاد الريس ضيف هذه الندوة ؟

قلت : ان روحية تعجبني في كثير من الاحيان ، فهي شاعرة بنت نفسها ، وتسلحت بما لم تتسلح به غيرها ، وبرزت الى الحياة راضية عن نفسها وعن عملها ، ولا يضيرها انني اختلف معها في رأيها او اتجاهها او طابع شعرها ، ويكفي على اصالتها انها لم تتراجع امام نقدي لها وقسوتي عليها ، وسارت على طريقها ، يحدوها الامل ، وتحمل سلاح الدفاع عن قضيتها او شعرها ..

قالت : يكفي أن تطالع قصيدتها في مجلة «الاديب» عدد يناير من هذا العام ، فهي قمة من القمم ، او جانب شرقي تعتز به الضاد وتفخر ؟

قلت : وهل مضيت فيها الى اخرها ؟

قالت : تريد :

وعينيك سوف اخاصم قلبي اذا صدق القصة الداهمة

قلت : ما معنى : « اذا صدق القصة الداهمة » ؟

قالت : لا يجوز لك الدقة او الحساب الى هذا الحد .. فحياة الاديب فيها تجاوز ، ما احسب الا انه تنفيس عن مكروبه او هو خيانة في التعبير ، او سبق في رص الالفاظ ...

قلت : حسبها :

ستبعد عني وابقى انا اعاني العذاب والقى الضنا
اما قلت لي يوم حلو اللقاء وكيف أودع سحر المنى
انا لا اطيق بعادك يوما سارحل . لا . لا سابقى هنا
كذبت وما كنت يوما كذوبا وخنت العهود التي بيننا

قال ابني .. كفاها هذا الاعتراف ، وكفانا هذا الامتاع ...

قلت : وكفانا هذا السحر .. ليتها تسير على هذا النهج ، وتعمق حتى القاع ، فتخرج لنا تلك الاصداف التي حار في كنهها كثير من الغواصين والباحثين .. بله الشعراء ..!!

قالت زوجي : وهل اصابها غنى الادب ؟ اوهي تعيش مثلنا على هذه الاماني المطولة ؟

قلت : اعتقد انها مثلنا تضحك على نفسها من نفسها ، وتعيش على هذا الكلام الساحر .. وتمضي لياليها في عذابات وصراعات واماني ، تطبعها بطوابع الانتظار ...

قالت ابنتي الصغرى : مسكينة هذه الشاعرة ، كنت احسبها تعايش « العز » وتساهر الثراء ، وتلازم « النزل » ويجري من حولها الخدم ؟

قلت : يا اولادي : ان اصحاب الرسالات لا يهدأ لهم بال ، ولا يسعد لهم حال ، الا اذا بلغوا الرسالة ، ولا يضيرهم بعد ذلك ان يكونوا في غنى أو في فقر ، ما داموا في رضا عن انفسهم ورسالتهم ، وما ترونه من امثلة فذة في حياة الادب ، ان هو الا متع ساعة ، وفقر وتعب الى قيام الساعة !!

قالت ابنتي الكبرى : نريد ابتاه ان نعيش كما يعيش الشاعر عزيز أباظة في قصره المنيف وغناه « الفاحش » ..

قلت : ان عزيز اباظة ، رجل لا يشعر بشيء ، طالما انه يقضي حياته على **هذه الوتيرة الراقصة** : فهو يقوم ويقعد ويمشي على اعناق صغار الشعراء الذين يتواكبون من حوله ، ويقفون على بابه ، يقدمون احلى النغم ، وارقص المعاني ، واحلى الالفاظ ، والشاعر يختار من بينها ما يصلح له ، او يرضي عقله ، او يتفق ووضعه في الحياة ...

قالت ابنتي الصغرى : نريد يا ابتاه ان تشرح لنا هذا الذي تعميه علينا ، او تخفيه في نفسك ، ولا نحب ان تعيش واياه على مضض ، فنحن قد اتفقنا علىمقاسمتك حياتك ، حلوها ومرها ، خيرها وشرها ؟

قلت يا بنية : ان « الباشا » في شعره ، لهو حديث يطول .. ونغم حزين احب ان يشاركنا فيه القراء في جلسة او جلستين ، فالرجل اسطورة شعرية ، ونادرة مبكية ، وفلسفة ضاحكة ، يتأبى على كل الناس ، لكن ليس علي « أنا » فأنا لست منهم ، ولا انا ممن يباعون او يشرون ، والا كنت في وضع غير هذا الوضع ، ومركز غير هذا المركز ، وغنى تحبه امك ، وترضين عنه انت واخوتك ...!!

فالى جلسة اخرى .. وما احسبك بناسبة موعد هذه الجلسات ، ولتكن في ليالي هذا الشتاء ، فهو اولى بالحديث الطويل ، والسهر الماتع الجميل ...

القاهرة ابو طالب زيان

الى شاعري فؤاد الخشن

* * *

يا مهدي الديوان من شعره ... حيرت فني في مدى زهره

لا تحسب السانح ان ضمنا ... اصبح كالبارح في دهره

في صفحة الروح حروف بها ... من شعرك العذب ومن دره

ليلتنا في حلب ما مضت ... ما زال منها الورد في عطره

«الفاضل القصاص» في سمرنا ... و «الفاتن» المضياف في سحره

و «البها» في الغيب تسبيحة ... ناجى بها الله مدى سفره

يا شاعري، ما الود ما حكمه ؟ ... ما كان ينساه اخو بره

نعيش في دنيا اعاجيبها ... تطلع زهر الفكر في شره

قال اناس ما لتبيانه ... قد حاد عما كان من حره

ابداعه فلك بلا قائد ... جاز الفراهيدي في بحره

نرى عمود الشعر ما شاقه ... في خيمة تخفق في عمره

صاغ بداة القفر الحانهم ... على حداء ند عن سطره

رأى نظام القول في بنية ... تحضرت كالدور في عصره

قل ما تشا في الشعر وانسج به ... قوافيا واسكب ندى خمره

ما قيمة الاشعار ان صاغها ... النظام في المحبوك من صخره

حاول بتجديدك امثولة ... لعلها تصلح من امره

« فؤاد » ، يا خفاق في شعره ... ناقوس حب دق في صدره

من بعد شوقي ما اتى شاعر ... فمن يرد الفن في قدره ؟

كتبت والعرب يجيشونها ... حربا تدك الخصم في غدره

فيا اله الكون حقق لهم ... فوزا عظيما جل في نذره

دمشق

زكي المحاسني

في ضاحية من ضواحي مدينة « طيبة » وعلى مقربة من النيل ، وبين الحقول الفسيحة الخضراء ، والبيوت القروية الميسورة المزدانة البساتين والرحبات بتماثيل الآلهة آمون وايزيس وتويريس ، واشجار النخيل القائمة حولها والمتراصة في نظام مهيب كأنها اعمدة معابد شاهقة ، نشأت الفتاة الساحرة الجمال « ميبريس » .

وكانت ميبريس بنت عامل طموح وفظ وبخيل ، نزح من المدينة الى الريف ، واشتغل بتجارة الماشية . فجمع ثروة كبيرة ، واشترى ضياعا واسعة ، وابى ان يغادر الضاحية الى المدينة . فنشأت ابنته بين مزارعه وحقوله نشأة طليقة حرة صافية .

وبلغت ميبريس السابعة عشرة من عمرها ، وتشربت نفسها حب الطبيعة ، وتفتحت عيناها منذ حداثتها على مختلف الوان الجمال الخالص الحي تبدو في الحقول الناضرة ، والطيور العابرة ، واناشيد الحصاد ، واغاني القرويات ، ومرح الريف وبهجته وسحره .

وكانت تقضي سحابة نهارها بين الفلاحين ، ترعى مواشي والدها ، او تشرف على شؤون احدى مزارعه ، او تهتم بأخوتها الصغار ، او تغني بصوتها الناعم الرخيم غناء يجمع القرويين حولها ، ويثير في نفوس الشباب منهم ارق واعمق الانفعالات .

ولم يكن احب الى ميبريس من الاستغراق الطويل في تأمل الطبيعة ، ومشاهدة الحقول وهي تتألق في الصباح تحت اشعة الشمس ، الاخضر ضاحكات هانئات ، والشبان وهم يبذرون البذور او يجمعون الثمار ، والزوجات وهن يتعهدن بيوتهن او يذهبن باولادهن الى المعبد المجاور حيث يلقي الكاهن عظاته والفتيات وهن يتراكضن على العشب المؤثرة ، وحيث التسابيح والتراتيل تتصاعد من قلوب طاهرة وتصل توا الى مسامع آمون العظيم ...

وأشاعت هذه الحياة في خلق ميبريس طباعا دمثة رقيقة ، واطلقت في ذهنها احلاما خلابة غريبة ، وبثت في قلبها عواطف مبهمة وفياضة ، كانت تذهلها ، وتقلقها ، ولا تعرف الى الخلاص منها سبيلا .

على ان ميبريس كانت تلوذ بالضحك فرارا من سطوة العواطف . فتضحك من نفسها ، وتضحك لمن حولها ، ثم تقبل على العمل في فرح ونشوة ، جاعلة من العمل واجبا مقدسا فرضته عليها قوة علوية لا بد من اطاعتها والاذعان لها .

وكانت هذه القوة العلوية الماثلة



بقلم ابراهيم المصري

في شخوص الآلهة المنتشرة حولها ، تأسرها وتسبيها ، ثم تغافلها في احيان كثيرة وهي تائهة عن ذاتها ، وتتحول بفيض عواطفها الزاخر الى الصوم والصلاة وشتى ضروب العبادة والتقى ، فتقر في فكرها التعادل والنظام ، وفي نفسها الراحة والسكينة والسلام .

ولم يكن بين فتيات الضاحية من تشبه ميبريس في مرحها وتقاها ، كما انه لم يكن بينهن من تشبهها في جمالها الباهر الفتان .

كانت مديدة القامة في امتلاء لين ، سمراء اللون في اتقاد ناضر ، سوداء العينين في حدة يمازجها فتور حالم ، موردة الخد ، دقيقة الانف ، صغيرة الفم ، ينسدل شعرها المجعد على منكبيها العريضين فتبدو من خلاله رائعة مهيبة ، عليها مسحة من وحشية الفطرة ، يلطفها ظل ابتسامتها الرقيقة البادية الصفاء .



وكان شبان الضاحية يهيمون بها ، ويعقدون حلقات السمر حولها ، ويبذلون قصارى الجهد في التقرب اليها وخطب ودها . اما هي فكانت تجاملهم ولا تعابثهم ، وتلاطفهم ولا تمازحهم ، احرص ما تكون على نفسها ، واقدر ما تكون على الظهور بمظهر البشاشة والطلاقة والمرح في ظل التحفظ والترفع والاحتشام .

وهكذا خلبت ميبريس الباب الجميع وفازت باعجاب الجميع . ولكنها لم تزه أبدا ولم تتكبر بل زادها تقدير الشبان حياء وتواضعا ، كما زادها انكماشا وتحفظا ، وولعا بالتأمل ، وشغفا بالطبيعة ، وتهافتا ملهوفا على تأدية شعائر الدين .

بيد ان سحر التأمل والطبيعة والدين اضرم في صدر الفتاة شعلة العواطف الغامضة المبهمة بدل ان يلطفها ، واشاع في نفسها رغبة شديدة في السمو بكل ما يحيط بها ، والتحليق باحلامها وخيالاتها في عوالم بعيدة وجميلة كالسماء التي تظللها . فتولد في نفسها على مر الزمن ميل غريب الى العزلة ، وميل اغرب منه الى استظهار قصائد الشعر الغرامية الشعبية التي كان يبتدعها الفلاحون ابتداعا ، ويرتجلونها ارتجالا ، ويتوجهون بها الى عشيقات مخيلات فاتنات .

هذا الشعر الساذج الحالم الرقيق ، كان الهواية المفضلة عند ميبريس . فكانت لا تفتأ تستظهره وتردده وتغنيه كلما برح بها طغيان العواطف ولجبها الشوق الى مخالة المجهول ...

وكان المجهول يطاردها ، فترتعد

توجسا منه ، ولا تحاول انعام النظر فيه خشية ان يبهرها ، فتقتحمه بالرغم منها ، فيعصف بها فجأة ويوردها موارد التخبط والضلال .

على أن هذا المجهول كان يستبد بها ، ويتراءى في كل لحظة امامها ممثلا في اي شاب قروي جميل .

وكان جمال الشباب يطوف بذهنها ، ويحتل خيالها ، ويخطف في نشوة التأمل هداة عقلها . فكانت تستسلم لاغرائه وهي حائرة، وتظل تحدق في صراحة وبراءة الى الشباب الاقوياء ، معجبة باكتافهم العريضة ، وعضلاتهم المفتولة ، وبريق الصحة والشباب المنسكب على وجوههم الملوحة الضاحكة . بيد انها كانت تبهت ولا تؤخذ ، وتذهل ولا تؤسر ، وتعجب اعجابا تأمليا مجردا ، يمس منها العقل دون ان يخترق شغاف القلب ويملأ فسحة الروح .

لم يحرك فؤادها اي شاب ممن يحيطون بها .

لم تجد بينهم ذلك الانسان الذي يمكن ان يكون رجل احلامها .

لم تحس ان في مقدور فتى منهم ان يقودها الى عالم المجهول .

لم تشعر حيال اجملهم وافتنهم بعاطفة الحب القاهرة المجتاحة التي كانت تحلم بها ويتردد صداها في الاغاني والاشعار . فظلت تتمثل الحب احساسا معنويا خارقا ، وتريده شعورا قدسيا ساميا . فتشبثت بهذه الصورة ، وحرصت عليها ، وطفقت تناجيها وتدعوها وتبتهل الى الآلهة ان تهبها اياها ممثلة في شاب قوى جميل ، يحمل نفسا عالية وقلبا كبيرا ترصد عليه مييريس صفوة شبابها وحياتها .

ذلك القلب الكبير كان اقصى ما تطمح اليه الفتاة .

ذلك الحب العلوي كان غاية ما تصبو اليه وتتمناه .

ولكن اين ذلك الشاب واين ذلك القلب وذلك الحب ؟...

الشبان كما اخذت تلاحظهم ، يطمعون فقط في حيازة الفتيات ، والفاظهم الرقيقة المعسولة لا تطري منهن غير المحاسن ولا تنشد غير متعة حسية ، تستشعر مييريس انها وضيعة ومنفرة وسريعة الزوال ...

ويئست الفتاة من تحقيق حلمها، واعياها البحث وطول الصبر والانتظار . فتحولت وتغيرت ، وتبدلت شخصيتها شيئا فشيئا . زايلتها ابتسامتها الناضرة ، وغمرت الكآبة وجهها وحديثها . عافت



ابراهيم المصري

●

المجتمعات والناس ، وانطوت على نفسها ، وامعنت في العزلة والتأمل، ولم تعد تجد متنفسا لقلبها الا في فروض الدين وشعائر التقوى .

وكانت كلما ناءت عليها وطأة العزلة تهرع الى المعبودة «توبريس» الممثلة في شكل جاموسة البحر والتي ترمز ببطنها المنتفخ الى الامومة والرضاع كما ترمز بسكينها الحادة الى ارادة البطش بكل من يجرؤ على مسها او مس جنينها المقدس بسوء ... كانت مييريس تهرع الى تلك المعبودة ، وتجثو امامها ، وتصلي لها وتلتمس اليها ان تقتلها بسكينها ، او تمن عليها بالزوج المثالي الذي تنشده ، والذي يستطيع ان يهبها نعمة الحب العلوي ونعمة الامومة والسلام .

ولم تعد مييريس تضحك او تغني وغشى الحزن نفسها ، وخيمت الكآبة على دارها . فذهل اهل الضاحية وراحوا يستفسرون والدها عما حل بها ، وينصحون له ان يسرع بتزويج ابنته خشية ان يصيبها داء العذارى، اي داء الحسرة واللوعة والاسى ، فيبتليها بمرض عضال قد يذهب بعقلها او يقضي في النهاية عليها .

وامتثل الوالد جزعا مروعا . ولما كان شديد البخل والطموح ، اسرع واتصل بمزارع كهل ثري يعلم انه معجب بمييريس وانه يحبها الى حد الشغف ويتمنى الفوز بها ، واختاره زوجا لابنته ...

بيد ان الفتاة الساكنة الحالمة كانت سليمة الفطرة ومشبوبة الخيال ، فاستهولت وثارت ورفضت . رفضت ان تنتهك وتلوث ، أن تباع لذلك الكهل الثري بيع الماشية . فكبر على والدها ان تعترضه ، وعز عليه ان تخرج على تقاليد بيئتها ، وخشي ان هو تركها حرة في اختيارها ان تزل بها القدم فتجلب عليه العار . فاضطهدها واوغر صدر امها حقدا عليها ، وذهب في اكراهها الى حد التهديد بالقتل .

واسودت الدنيا في عيني مييريس ولم تستطع الا ان تسلم .

انهار املها ، وتبدد حلمها ، وزفت الى الكهل الثري كانما هي تشيع الى قبرها .

وغارت عيناها ، وعلت الصفرة وجهها ، واتشحت بالسواد كأنها في حداد دائم على حظها ...

✶

وانقضت ثلاث سنوات ، ثلاث سنوات طويلة ، ثلاث سنوات عابسة

مكفهرة اشبه بشتاء لا ينتهي ، كانت ميبريس في خلالها تبذل قصاراها لتألف حياتها الجديدة ، وتعتاد معاشرة زوجها ، وتخنق في اطواء صدرها روحها الظامىء المضطرم القديم .

كانت تعكف على رعاية شؤون بيتها ، ومحاسبة العملاء والتجار ، ومراقبة حاصلات المواسم ، والاشراف على بيعها وتصريفها . فتغير مظهرها على مر الزمن ، واصبحت في نظر الجميع امراة رشيدة عاقلة ، هادئة النفس ، قويمة الفكر ، واقعية النظرة الى الحياة ، لا يشغلها سوى الواجب والمصلحة .

وكان زوجها الكهل يحبها اعمق الحب ، ويتفانى في الاخلاص لها ، ويبذل كل مرتخص وغال في سبيلها . كان يحبها في تهيب ، ويقدسها في صمت ، ويعبدها في خشوع . وكان يعلم انها لا تحبه . فكان يتعذب ولا يتكلم ، ويتجمل ولا يفصح ، ويغلو في العطاء والبذل دون توقع اي شكر او جزاء . فكانت ميبريس تكبر فيه وهو صاحب حق عليها ، ان يقابلها اعراضا باقبال ، وجفاء بعطف ، وقسوة بتواضع واحتمال . فتفكر على دهش منها في ان تغالب طبعها وان تلين يوما وتخضع ، وتفتح مغاليق قلبها لذلك الزوج العاشق الطيب الصبور الكريم .

والغريب انها كانت تنفر منه وتنجذب في الوقت نفسه اليه . تصد عنه ثم تقبل فجأة عليه . تعاف ملمسه ودعابه ثم تشعر كأن قوة خفية تدفعها نحوه وتربطها به.

كان حبه الصامت الباذل المعذب ، يتصل بروحها ، ويستجيب لجوهر نقي عزيز عليها ، ويخاطب فيها تلك العاطفة السامية العلوية التي طالما حلمت بها .

ولكن شيئا اخر منبعثا من صميم كيانها ، كان ايضا يحتويها ، ويلهب دماءها ، ويباعد بينها وبين زوجها ، ويوزع عواطفها بين الطيبة والقسوة، بين الاقبال والاعراض ، بين الشفقة والثورة .

ومع ذلك فقد ارادت ان تكبح ذلك الثوران الغامض المحتدم في دمها ، وان تقهره وتحنو الحنو الغامر على الرجل الصابر المعذب الذي هو زوجها . ولكن القدر ، القدر الغاشم المتربص بها ، أبى الا ان يغافلها ، وينقض بغتة عليها ، وينشب فيها دون رحمة مخالبه .

✶

ففي ذات صباح وبينما كانت ميبريس تتعهد حديقة بيتها حيث ينهض تمثال الربة توبريس قابضة على سكينها تهدد بها كل من يجسر على مسها أو مس جنينها بسوء ، في ذات صباح ابصرت المرأة عن بعد شابا غريب المظهر لم تكن قد رأته في الضاحية من قبل . ابصرته يتطلع الى البيت ، ويحوم حوله كأنه يريد ان يستوثق من انه هو البيت الذي يبحث عنه . فلم تجسر ميبريس على مخاطبته واستفساره عن رغبته بل تركته حائرا متخبطا وطفقت تتأمله ...

وما ان امعنت النظر فيه حتى بهتت وتراجعت ... احست وهي مستغربة ومذهولة كأن قلبها يهبط في صدرها ، وكأنه يذوب ويضمحل وتغيب معه انفاسها ...

وارادت أن تكر راجعة وتدخل البيت ، ولكن قوة عاتية ابقتها في مكانها . فأشاحت بوجهها ، ومضت تشذب الاغصان وتروي الازهار ، وهي تنظر الى الشاب خلسة وترتجف .

رأت قامة ممشوقة فارعة ، وجبهة عريضة ناصعة ، وعينين لوزيتين واسعتين ساحرتين ، وانفا مستقيما ، وفما دقيقا ، وقسمات باهرة متسقة يقترن فيها الجمال بالعزيمة والكبر والشمم . فاندفعت ميبريس الى باب الحديقة وفتحته، ورفعت بصرها الى الغريب ولم تتكلم ... فدنا الشاب منها وحياها . ولما ايقن انها هي ربة البيت الذي يقصده ، اشرق وجهه ، وقال انه عاطل يطلب عملا ، وانه قد وفد الى الضاحية عساه ان يجد العمل في احدى مزارع زوجها الذي هو صديقه والذي عرفه في المدينة منذ اسابيع . فتمهلت ميبريس لحظة وهي تشخص الى الشاب . ثم اسرعت ونادت زوجها .

فرحب الرجل بصديقه ، واكرم وفادته . وما لبث الرجلان ان تفاهما ، وشرعا يتحدثان عن الضاحية وسكانها ، وعن العلاقات التجارية التي تربطها بطيبة والمدن المجاورة .

✶

ولم تكد تمر بضعة اسابيع حتى اصبح « ساتني » صديق الاسرة ووكيل الزوج في اعماله بل كاتم سره وموضع ثقته والقوة الشابة النامية التي يعتمد عليها في معظم معاملاته.

واستقر ساتني في الضاحية ، واتخذ لنفسه مسكنا صغيراً بجوار بيت صديقه . فكان يرى ميبريس كل يوم تقريبا وكانت تراه ...

وهكذا جاءها القدر بحلمها فجأة وبدون عناء ...

جاءها القدر بضالتها ، وحملها مختارا اليها ، وقدمها لها في ابتسامة خبيثة ساخرة .

حرمها القدر من الحب قبل الزواج ، ليهبها الحب وهي اسيرة مكبلة.

واحبت ميبريس ساتني حبا عاصفا غلابا طواها واكتسحها كأعصار .

احبت ساتني بكل قوى عواطفها المكبوحة ، وكل عذابات صبرها الطويل ، وكل حسرات شبابها المخيب المطعون .

وتلفتت حولها وهي شاردة ، واذا بها تحس الكون غضا جميلا ، والسماء مصحية لامعة ، والازهار

بسامة ضاحكة ، والطبيعة كلها قد ارتدت الى عهدها الاول افتن ما تكون بهجة ورواء وحياة .

وراحت ميريس تتسلل الى حلم شبابها المنتفض وهي مذهولة ، وتخالسه وهي مفتونة ، وتداعب اطيافه الرائعة المروعة وهي مأخوذة ومسلوبة ، لا تستطيع ان تصدق او تتصور ان من كانت تحبه في همسات احلامها وتنشده في واقع حياتها قد اصبح يعيش حقا امامها، ويتنفس في قربها ، ويتقلب في جوها ، ويختلج حرارة وحياة على مرمى اللهفة منها ...

وبدأت تجامله وتلاطفه ، وتستدرجه وتشجعه ، ثم خامرها القلق بغتة ، فخافت من نفسها ومنه . فشرعت تقصيه وتعرض عنه . ولكنها اقصته ثم قربته ، وراغت منه ثم سعت اليه، وحاولت ان تعف عنه فلم تستطع الا ان تلوذ به من عذابها وتتهافت عليه .

واستجابت نفس الشاب التي حبها وامتدت اليها شعلته فالهبا الهابا.

وعندئذ تنبهت ميريس وصحت. احست لاول مرة في حياتها ان هوة سحيقة تحتفر عند قدميها . فحدقت الى الهوة المغفورة ، وعاد الدوار وطوح بها على الرغم منها . بيد ان الاعماق المدلهمة روعتها ، فتراجعت مستهولة وساخطة ، وغالبت جهدها الاغراء العنيد ، واستماتت في الكفاح لتفصل بين عقلها وقلبها ، ومضت تفكر وتتأمل، والدوار مع ذلك يخالسها ، وسحره الخالب ما ينفك يبتسم لها ويدعوها ... كيف ... كيف يمكن ان تعبث وتغدر وتخون ؟!...كيف يمكن ان تخون زوجا اسرها بحبه ، واسرها بعذابه ، وبذل المستحيل ليعوضها عن كهولته حسن معاملة ، ولطف معاشرة ، وسخاء يد ، وصدق عاطفة ، ونبل خلال ؟!..

ثم كيف يمكن ان تخرج عن طبعها ، وتنتهك حرمة ذاتها ، وترخص وتتبذل وتكشف عن محاسنها لرجل غريب . ثم كيف يمكن ان تتسلل كاللص ، وتزحف كالمجرم ، وتتلون وتتماوج كالحرباء والافعى . كيف يمكن ان تتصل برجلين ، وتتوزع بين رجلين ، وتكذب وتحتال في كل يوم وفي كل ساعة على رجلين ؟!... الحب الصحيح لا يمكن ان يسلم الا لرجل واحد . وهو لا بد ان يسلم الجسد توكيدا لوفاء الروح... الجسد؟... لقد كانت ميريس تشعر بوطأته ، وتتلهف في قرارة نفسها على تلبية ندائه . ولكنها كانت تنشد الحبيب الذي يمكنها ان تعف عنه ، والذي يمكنه ان يحبها لشيء اقدس وابقى من الجسد . اما الان فقد اصبحت تعلم علم اليقين ان لا مفر لها من هبة الجسد ، ولا مفر لها من تلويث الجسد ، وانها هي نفسها تطلب هبة الجسد كاملة ولا تستطيع .

وعاودها الشعور بالانفة والاستنكار والذعر كما عاودها الشعور باللوعة واللهفة والحب . فأحست وقلبها ينخلع ان شيئا عميقا فيها بدأ يتنكر لزوجها ، وانها تمانده وتقاومه ، وتصد عنه وتزجره ، وتوشك ان تنفر منه وتعافه وتكرهه .
فاستهولت هذا الاحساس الجديد ، وادركت ... ادركت انه هو الدوار . هو الدوار المتربص بها . هو الدوار الذي يطن في رأسها ، هو الدوار الذي قد يغلبها يوما ويجرفها ويلقي بها على الرغم منها في عمق الهاوية .

وارادت ان تتنفس ، ان تتخلص، ان تفر . فهرعت الى معبودتها الاثيرة ، الى تويريس ربة الامومة والرضاع ، وقدمت لها القرابين واستصرختها الرحمة ، واستحلفتها باسم الكائن المقدس الجاثم في احشائها ، ان تمنحها طفلا ، طفلا يصونها ويحميها ويملأ فراغ قلبها ، وينقذها من حبها المنكر الاثيم .

وكبحت ميريس نفورها جهدها، وعادت فأقبلت على زوجها ، واتصلت به ، واندمجت فيه اندماجا كليا مطلقا ، عسى ان تجد بين احضانه الراحة ، وتظفر منه بالطفل المنقذ المبتغى .

وكانت تتجنب ما استطاعت رؤية ساتني وهي تعلم انها تعذبه . ثم تحبس نفسها في مخدعها ، وتصوم وتصلي ، وتطلب الى الربة تويريس ان تغفر لها العذاب الذي تلحقه بحبيبها ، وان تمدها فوق ذلك بالقدرة على مواصلة تعذيب نفسها وتعذيبه ، علّه يتبرم ويسخط وينصرف اخر الامر عنها . ولكن الشاب لم ينصرف بل تباعد كأنه دخيل ومنبوذ . فتمزق قلب ميريس حبا له وشفقة عليه ، وابت مع ذلك الا ان تثبت ، ان تقاوم ، ان تمعن في تعذيبه وتعذيب نفسها، ولا تضعف وتستسلم .

وفجأة تبدلت امامها الدنيا وشاع فيها النور ...

استجابت لها الربة القادرة ومنحتها الطفل ... فلم تكد تشعر ميريس انها حامل حتى اصابها شبه مس من خيال .

غمرتها الراحة والطمأنينة والثقة .

وثقت في نفسها وفي عزيمتها وفي حظها وفي عين الربة القادرة التي تكلؤها . فأعرضت عن ساتني بجمع كيانها ، وصوبت لهفة هذا الكيان كله نحو جنينها ...

لم تشأ ان تحس لعذاب الشاب اي الم . بل لم تشأ ان تحس لعذابه اي تأثر او انفعال . فهالت ساتني قسوتها . فأعرض بدوره عنها ، ثم عاد صاغرا اليها، والف وهو يزورها ان ينزوي في ركن من بيتها ، يتحدث الى زوجها ، وعينه الناقمة المتقرحة تتطلع اليها خلسة وتعبدها ...

وكان الزوج لفرط حبه امرأته وثقته في صديقه ، لا يخطر على باله فكرة الخيانة لحظة . فاستغرب من ساتني انزواءه وتجهمه . ولكنه عزاهما الى غرابة اطواره والى حياة العزوبة وما تبعث في النفس من ميل

الى الوحدة والاعتكاف .

واما ميبريس فقد حزت في نفسها كآبة ساتني ، وملأت قلبها بالتوجس والرعب . خشيت ان يفقد صبره فتفقده هي الى الابد . فاستضعفت وهمت بأن تسعى اليه وتستغفره . بيد ان هذه الخطوة الحاسمة ضاعفت رعبها . فاستمدت من الرعب قوة وثبتت ايضا وقاومت ، وتحولت بكل عزيمتها الى التفكير في طفلها . .

✶

وتصرمت اشهر اللهفة والقلق والشوق والانتظار ، وانفطر كيان ميبريس بغتة ووضعت الطفل !...

وضعت الطفل العزيز ، الطفل المنشود ، الطفل المبارك المنقذ المحيي . ولكنها ما ان حملته بين ذراعيها ، وضمته الى صدرها ، واحتوته وتنشقته وقبلته وحدقت فيه ، حتى اقشعر بدنها وارتعدت فرائصها .

رات طفلها المعبود صورة حية مختلجة من حبيبها ساتني !

رات حبيبها نفسه ينبثق من كيانها ، ويخرجها من احشائها ، ويصبح جزءا ابديا منها ، ولا يعللها بالخلاص بل ينذرها بالهلاك !

وايقنت ان القدر يطاردها ، وان لعنته قد حلت عليها ، وان الآلهة جميعا قد تحالفت لتصرف عين الربة تويريس عنها . فنظرت الى الطفل ، ونظرت الى نفسها ، ولم تستطع الا ان ترى ساتني راقدا في حضنها ، يبتسم لها ، ويناغيها ، ويرفع ذراعيه الفاشمتين ويقبض بهما على عنقها .

وعاشت سجينة في مخدعها اياما واسابيع ، وساتني امامها ، وصورته تخلبها ، والطفل نفسه يلهب الصورة ، ويبعث الطيف ، ويستنهض الخيال ...

وجاهدت ميبريس لتكتفي بالوهم عن الحقيقة ، وبالروح عن الجسد ، وبالطيف عن الانسان . ولكن الانسان كان يلاحقها ، ويحتل وجودها ، ولا يكاد يتمثل لها في الزهرة الناضرة التي نبتت من خالص دمها ، حتى تصبو بالرغم منها اليه ، وتتهافت بوجدانها عليه ، وتثور حواسها طلبا لقربه كما تثور حواس الام ابتغاء قرب الرجل الذي تحبه والذي استولدها بكر اولادها .

وباتت تعتقد ان ساتني هو والد ابنها ، وان هذا الوالد هو الاب الحق ، وهو الذي يجب ان تهرع اليه ميبريس وتهبه جسدها وحياتها .

واحست ان لا بد لها اليوم او غدا من ان تحطم كل شيء وتمضي في طريقها ... اجل . احست ان خيانة الزوج الطيب مقدرة عليها ، وانها مسوقة سوقا الى اللحاق بحبيبها ... ولكن اتحمل الطفل معها ام تتخلى عنه لزوجها . واذا تخلت عنه فكيف يمكن ان تعيش وتسعد هي . كيف يمكن ان تفصل بين ابنها وحبيبها ، وهذا الحبيب هو والد ابنها بالفكر والقلب والروح ؟!... لن تتم لها السعادة الا اذا جمعت بين الابن والحبيب... ولكن اممكن هذا ؟... افي وسع اي عقل ان يتصور هذا ؟... لن يتخلى زوجها ابدا عن ولده . لن يطلقها مهما ثارت وتوعدت واعولت وانتحبت . لن يمنحها حريتها وهو يحبها . لن يبيحها سمعته وشرفه وعرضه وهو صاغر وذليل ... واذن فهي مجبرة على ان تمكث معه. مجبرة على ان تضلله وتخدعه . مجبرة على ان تتخذ من ساتني عشيقا لها حرصا على الولد وحرصا على الحبيب . وعندئذ لا بد ان ترتطم . لا بد ان تفتضح فتجلب العار ايضا على ابنها البريء ، ابنها الوحيد ، وتغمره بالذلة ، وتدمغه بالوصمة ، وتقضي القضاء المبرم على حياته وحياتها .

واظلمت الدنيا في عينيها ، وتوزعت نفسها بين الاقدام والاحجام ، بين الرغبة والخوف ، بين الرجاء واليأس . ولكن ساتني الذي كان امامها ، في حضنها، جعل ايضا يخاطبها ويشجعها ويدعوها. فتأكدت مره اخرى انها لامحالة هالكة.

ولما ان احتواها هذا اليقين وتمكن منها وابصرته اشبه بوحش كاسر يجثم على صدرها ويكاد ان يأخذ بمخنقها ، لم تحتمل ، وهبت من فراشها ذات ليلة ، ثم تأملت نفسها ، واعضاءها ، وبيتها ، والخمس سنوات الطويلة التي عاشتها منذ قرانها . وفي هداة التأمل وسورة التذكر واستبداد السخط والحنين ، تصورت ماضيها الابيض الناصع وهو يمرغ في التراب ، وزوجها الطيب الواثق وهو يطردها ويثير عليها والدها واهل الضاحية ويوصد في وجهها كل باب ، وابنها المنتزع منها يصبح في الغد رجلا ويضرب في الحياة وهو محقر وذليل وموصوم.

فاستطار لبها ، وجاشت في نفسها كبرياء عفتها وعزة صونها. فالتهبت فجأة ارادتها . فلم تتمهل ، وانسلت من مخدعها ، ومشت كمن يحلم وهو نائم ، وخرجت الى الحديقة ، واتجهت صوب تمثال الربة تويريس ، وجثت امامها ، ومضت تحدق فيها ... لم تحدق الى وجهها ولا الى بطنها وثدييها ، بل اشرابت وحدقت الى السكين ، الى السكين التي كانت الربة مسلحة بها ...

ورفعت ميبريس ذراعها ، وتحسست السكين وانتفضت ... انتفضت ثم تماسكت ثم قرت وانسكبت في اعضائها قوة ثابتة وعازمة . فكرت راجعة ، ودخلت بيتها ، ومرقت الى مخدعها ، وانحنت على سرير طفلها تتأمله وهو نائم وترهف السمع الى غطيط زوجها .

واحست كأن فؤادها يقطع اربا. ولكنها تماسكت ايضا وقبلت ولدها. ولم تكد تقبله حتى تصلبت وتدفق فيها العزم طاغيا كالسيل .

فتحولت نحو جعبة معلقة في ركن من الحجرة ، وانتزعت منها سكينا ، واندفعت وفتحت الباب الخارجي وانطلقت .

انطلقت تركض في الظلام الدامس ،

محلولة الشعر ، مكشوفة الصدر ، عارية القدمين ، حتى بلغت منزل ساتني . فطرقته . فبرز اليها الشاب مرتاعا . فما ان رأته حتى إستهولت مسلكها وهمت بالتراجع. ولكنها صرت على اسنانها مغيظة ومحنقة ،ودنت من الشاب ، وصاحت به كمعتوهة ، وروعة جماله تكاد تخلبها ، واللهب المندلع من وقدة شبابه يكاد يحرق عزمها :

– ارحل .. اترك هذه الضاحية .. اقطع كل صلة لك بزوجي ... اني احبك يا ساتني ... ولكني لا استطيع ... ابدا لا استطيع .. وانت تعرف ذلك ... فارحمني ... اشفق علي ... اترك الضاحية غدا ... يجب ان ترحل غدا والا اهلكتني... سأموت يا ساتني ... اتفهم ؟... سأقتل نفسي !...

فارتعد الشاب ولم يصدق بصره وسمعه ، وانقض عليها وحاول ان ينتزع من يدها السكين . ولكنها تملصت منه في اباء وعزم . فحملق فيها ثم صاح :

– امن اجل ان تقولي لي هذا جئت الساعة الى هنا ؟... تريدين اقصائي اليوم عنك ؟... لماذا ... لماذا تركتني بالامس احبك ؟.. لماذا لم تحرمي علي منذ البدء دخول بيتك ؟.. لماذا لم توعزي الى زوجك بفصلي من عملي؟... ابعد ان قربتني اليك واضرمت نارك في صدري ، تتنكرين لي الان ، وتحطمين قلبك وقلبي ، وتهددينني بالانتحار ؟!... ولكنك انتحرت منذ يوم زواجك ، وحبي وحده هو الذي يمكن ان يبعثك !

واضطرمت ثورته واستطرد وهو يرجف :

– اية حياة تلك التي عشتها مع ذلك الكهل ؟... لقد اشتراك بماله، وتقاضاك الاعوام الطويلة حقه . فمن حقك انت اليوم ان تعيشي وتتمتعي ، وتثأري من عبودية واجب موهوم بحرية واقعة ترد اليك كرامتك وتهبك الحب والحياة !...

فاذا كنت حقا تحبينني ، فاتركي زوجك ، واحملي معك ولدك الذي هو بالقلب والروح ولدي ، واتبعيني ... واذا كنت تخافين على حياتك وحياتي ، فاعلمي ان زوجك المترف الضعيف ووالدك البخيل الطماع لن يجسرا على مسنا بسوء ، ولا بد ان يؤثرا في النهاية طلاقك ، على ارتكاب جريمة تزج بهما في السجن وتحرمهما التمتع بالنعيم الذي يمرحان فيه ... فاتبعيني ، ولنفر سويا ، ولنكافح ونتعذب حتى نتزوج ... تلك هي القوة والسعادة يا ميريس !

فنظرت اليه فترة مأخوذة . ثم هالتها تلك السعادة الخارقة التي لا يمكن ان تتحقق الا على كومة من الاشلاء والضحايا . فأسرعت تقول وهي تتلوى :

– العار لولدي ... والعار لابي ... والعار والشقاء وربما الموت ايضا لزوجي !.. محال ... لن يعيش زوجي ان انا حرمته من ولدي ومني !

فصرخ الشاب :

– انت تحبينه !

فقالت :

– انا ممزقة يا ساتني فارحمني !.. كنت اتمنى ان اسمع منك صوتا اخر يمكن ان يجمعني بك دون ان يلوثني ... ولكنك لم تستطع ... انت انسان ... لست غير انسان ... اذن فيجب ان تقسم ...

وهتفت :

– اقسم ... اقسم لي بالمعبودة تويريس ان ترحل !

وجعلت تتردد في صوت باتر المخارج قاطع النبرات :

– اقسم ...

فثبت فيها بصره . فألفاها منتصبة حياله كأنما هي طود شامخ، كلما حاول ان يقتحمه ازداد الطود صلابة ، وتهشم هو على صخره وتحطم ... فدنت هي منه بغتة ، واوشكت ان تجثو امامه ، وصوبت اليه نظرة . نظرة مبتهلة ، نظرة متوسلة ، نظرة مستغيثة . فتفرس فيها . فواجهته عيناها المتوهجتان حيث يبرق العزم الراسخ مقرونا بعمق الالم وذلة التوسل والاسترحام . فتفطر قلبه ، وملكه اليأس ، وايقن من المصير الفاجع الذي فرضته المرأة عليه . فحنى رأسه ولم يستطع الا ان يقسم . ولكنه ما ان اقسم حتى اختبل . وفي لوثة حسرته ويأسه وضياعه ، ارتمى عليها وحاول ان يضمها لاول مرة ويقبلها . بيد انها لم تكد تحس انفاسه الحارة تهب عليها ، حتى اختلجت وضل عقلها . فأرادت هي ايضا ان تقبله ، ان تضمه ، ان تعانقه ولو لحظة وتفنى فيه . ولكن استشعارها مقبض السكين المضمومة عليه اصابعها ، ردها الى نفسها ، وذكرها بعزمها ، وبالسكين المقدسة التي تحملها ربة الامومة والرضاع ذودا عن جنينها . فاستجمعت مدخر قواها ، ودفعت الشاب عنها . وقبل ان يعود فيتشبث بها ، استدارت تائهة ومخبولة ، وانطلقت تعدو صوب منزلها .

✶

وفي مساء اليوم التالي وبينما كانت ميريس جالسة في احدى شرفات بيتها ، وابنها يرقد في حضنها ، دخل عليها زوجها وهو دهش وآسف ومحزون ، وانبأها ان ساتني قد تغير دون سبب ، وانه ترك العمل ومضى ، واعتزم ان يقيم في كوخ في قرية الحطابين القريبة من الضاحية . فارتعشت المرأة وهزت كتفيها كأنها لم تحفل. ثم سرحت بصرها في الافق القريب، في الافق الدامي ، حيث تبدو الحقول الواسعة ملتمعة في قرية الحطابين ، ثم انحنت وهي ملهوفة، انحنت وهي مذعورة ، ومضت تضم الى صدرها طفلها المرهوب ، وعينها الذاهلة الشاردة تحدق الى قرية الحطابين ...

القاهرة **ابراهيم المصري**

ابراهيم الدباغ

بقلم البدوي الملثم

* * *

في يافا الشذية برائحة البرتقال ، المعطرة بارج الليمون ، الغافية على زند المتوسط ، ولد ابراهيم الدباغ عام ١٨٨٠ وترعرع . وعندما بلغ الرابعة من عمره احتسب والديه فكفله جده لابيه السيد عبد القادر احمد الدباغ وجده لامه السيد سعيد الشرقاوي ، وكلاهما من اهل الفضل والعلم ، وكان ابراهيم يقرأ عليهما كتب الاخلاق والفقه والتصوف وقصتي عنترة (١) وابي زيد الهلالي وغيرهما من القصص الشعبي بالاضافة الى الكتب الادبية والدواوين الشعرية .

وبعد ان تجاوز ابراهيم العاشرة من عمره درس في كتاتيب يافا ثم اشتغل خياطا وما لبث ان هجر هذه المهنة وعمل حدادا لدى الماني اسمه « كوتلب » وذات يوم اصابته شظية حديد اقعدته عن العمل فمرض وانقطع عن الحدادة واخذ يغشى حلقات الذكر ويرهف السمع الى اناشيدها ، ومن هنا اختمرت الانغام في نفسه !

وبعد فشل الثورة العرابية في مصر عام ١٨٨٢ اختبأ السيد عبد الله النديم ، خطيب الثورة ، في مصر الى ان القي القبض عليه فصدر اول عفو عنه ونفي الى يافا عام ١٨٩١ ، وهنا لزم ابراهيم مجالس الضيف الكبير واقبل على احاديثه الادبية والعلمية التي كان يعقدها في بيوت اهل العلم والادب ، فأعجب ابراهيم بالحديث الطلي من الضيف المشرد واختمر طلب العلم في نفسه فقرر الالتحاق بالازهر الشريف .

وعاد السيد عبد الله النديم الى مصر ، بعد صدور العفو عنه ، لكن عادت السلطات البريطانية الى اعتقاله ونفيه خارج القطر المصري فاتخذ يافا دارة له وبلغها في ٢٠ – ٦ – ١٨٩٣ ، واخذ الدباغ يتردد على مجالسه الادبية بصحبة جديه وعزم نهائيا على شد الرحال للازهر طلبا للعلم وكان قد بلغ الثالثة عشرة من عمره .

وقبل ان يقدم ابراهيم على الالتحاق بالازهر وجه الى جده السيد عبد القادر الدباغ فتوى خطية ضمنها السؤال التالي : « ما حكم طالب العلم وهو تحت سن الوصاية يتطلع الى المزيد من العلم لكن وصيه يأبى عليه ذلك ، ايخالف الوصي ويخرج لطلب العلم ؟ ام يبقى حيث يشاء له وصيه ؟ »

فرد الجد بالفتوى التالية : « اذا كان طالب العلم راغبا في الاستفادة منه فيوسعه ان يخالف ارادة الوصي ويسافر في طلب العلم ، لان طلب العلم فريضة على كل مؤمن ومؤمنة ! » .

تلقى ابراهيم فتوى جده بمجالي الغبطة والارتياح .. واودعها جيبه وفي يوم من ايام خريف عام ١٨٩٣ بارح يافا بحرا وبلغ دمياطا على ظهر مركب شراعي واستأنف سفره الى القاهرة وتمكن من الانتساب للازهر وسلخ فيه طلبا للعلم عشر سنوات الى ان حصل على الشهادة العالمية ومن اساتذته : الشيخ محمد عبده ، السيد عبد القادر القصاب ، عبد الله وافي المنوفي ، سليم البشري ، سيد علي المرصفي ، الشيخ محمد المهدي ، الشيخ حسن الطويل وغيرهم من اعلام الازهر .

وخلال دراسته في الازهر تتلمذ مع رفيقيه الشاعرين ولي الدين يكن واحمد محرم على الشاعر المعروف العلامة حسني باشا الطويراني صاحب (لامية الترك) ودرس عليه مع زميليه الادب والعروض والفلسفة وراسل الصحف المصرية وغيرها والتحق بالندوات الادبية كندوة عبد الخالق السادات وندوة البارودي شاعر مصر الكبير وندوات آل تيمور وشيرين ولمع اسمه في آفاقها .

وانكب الدباغ على دراسة الادب العربي واسعفته ذاكرته القوية على حفظ روائعه شعرا ونثرا ، وقاد وهو طالب مظاهرة من طلاب الازهر طلبا للاصلاح ، لكن السلطات فرقت شمل المتظاهرين واودعت الدباغ السجن ، وبعد ايام افرجت عنه فعاد الى دراسته وكان من لداته في الازهر : مصطفى لطفي المنفلوطي ، حسن ومصطفى القاياتي، الشيخ ابو العيون ، احمد نسيم ، ابو الوفاء محمود رمزي نظيم ، عبد العزيز شاويش وغيرهم .

في حقل الصحافة :

وبعد تخرجه من الازهر التحق بالصحافة لانسجامها مع سليقته واخذ في مراسلة « الاهرام » و « المقطم » و « المؤيد » و « اللواء » و «الجريدة» ونشر شعره ونثره في « المؤيد » و « الاهرام » و « اللواء » و « الظاهر » و « مجلة سركيس » و « الرقيب » وعين رئيسا لتحرير جريدة« العهد القويم » ولصحيفتي « التمثيل » و « المسرح » و « القاهرة » ، واسهم في تحرير مجلة «روضة البحرين» وغيرها من المجلات والجرائد بالاضافة الى تحريره في صحف الفكاهة ك « الصاعقة » لاحمد فؤاد و « السيف » لاحمد حسين .

وفي عام ١٩٠٤ انشأ « الانسانية » جريدة ومجلة وظل يصدرها لغاية عام ١٩١١ بعد ان اغلقتها الحكومة . وقبل اعلان الحرب العالمية الاولى وبعد اعلانها اخذ ينشر شعره في « مجلة سركيس » وبعضا من تعليقاته ومقالاته في مجلة « الزهور » ومال بكليته الى الحزب الوطني واسهم في تحرير الصحف الناطقة باسمه مثل « اللواء » و «الشعب » و « العلم » واحبه زعماء هذا الحزب امثال مصطفى كامل ومحمد فريد والشيخ عبد العزيز شاويش . وتقديرا منهم لوطنيته شقت قصائده الوطنية طريقها الى الصدارة في « اللواء » .

وفي عام ١٩١١ عرضت عليه وظيفة في « دار الكتب المصرية » مع حافظ واحمد نسيم لكنه رفضها باباء لتطلعه الى الحرية ورغبته في ان يعيش حرا طليقا في رحابها ... وظل يسجل احداث مصر السياسية شعرا الى حين ادركته المنون .

يسلك بعض ادباء مصر الشاعر الدباغ في عقد الطبقة الاولى كحافظ ونسيم واحمد الكاشف واحمد محرم ومنهم من يقول ان شعره اجود من شعر حافظ لا سيما شعراء الاسكندرية والصعيد ، لان الروح الوطنية في شعره اقوى منها في شعر حافظ ، ولم يذكر عارفوه وعشاق ادبه انه تملق يوما كبيرا او تزلف لذي حول وطول .

وفي عام ١٩١١ زار تيودور روزفلت (١٨٥٨ – ١٩١٩) مصر والقى خطابا في الجامعة المصرية غمز فيه من قناة المصريين فهاج الدباغ لهذه الغمزات وصدر « المؤيد » في صباح اليوم التالي وفي الصفحة الاولى منه قصيدة بتوقيع الدباغ وقد اشتملت على مقدمة نفيسة ورد بليغ .

وقبل نشوب الحرب العالمية الاولى عين رئيسا لتحرير « العفاف» وظل يعمل فيها الى حين انطلاقة شرارة تلك الحرب الضروس فاعتقلته السلطات البريطانية مدة سنة ثم افرجت عنه وعين رئيسا لتحرير مجلة

(١) – قال الدباغ في ص ١١٧ من كتابه « حديث الصومعة » : وقد قرأت وانا صغير قصة (عنتر) ثلاث مرات لجدي السيد عبد القادر الدباغ رحمه الله وقرأت (الظاهر بيبرس)و (الف ليلة وليلة) لجدي المرحوم سعيد الشرقاوي ، فمررت باعاجيبها واكاذيبها وآمنت بخرافاتها واساطيرها ، ولم اجد بعدها في عجائب الدنيا شيئا يذكر !»

« مرآة الادب » وظل يشرف على تحريرها لغاية ١٩١٨ .

وفي عام ١٩٢٠ نشر طائفة من المقالات الادبية في جريدة « الساعة » وفي مجلة « الاصلاح » وفي صحيفتي « الناس » و « البغبغان » لصاحبهما حسين شفيق المصري وفي عام ١٩٢٢ اصدر جريدة « الزمان » وظل يصدرها الى عام ١٩٢٤ .

رهن المحبسين : وفي عام ١٩٢٦ فقد بصره فعرض عليه بعض ساسة مصر معالجة عينيه على نفقتهم لكنه رفض العرض وساله بعض المنشقين عن الوفد المصري الانتساب اليهم طمعا بنتاج قلمه وهم ينفقون على معالجة بصره وانتشاله من البؤس الذي يبلوه لكنه ابى عليه هذه الاغراءات وقال لابن اخيه الاستاذ مصطفى درويش الدباغ : « لن ارهن ديني ووطنيتي في سبيل عرض زائل ، فزادي في هذه الحياة كبريائي وعزتي وانفتي ! »

ورغم النكبة التي اصابت عينيه ظل ينشر المقالات والقصائد في « كوكب الشرق » و « البلاغ » و « السياسة الاسبوعية » و « الرسالة » و « الوفد المصري » و « الاهرام » و « المقطم » واطلق عليه عشاق ادبه « رهين الاحباس » واسماه اهل القلم في مصر « اديب القاهرة » و « فولتير مصر » وخاطبه بعضهم في رسائله « عزيزي الشيخ فولتير » اذ كان الدباغ ناقدا اجتماعيا مرا من طراز رفيع ، وفي مؤلفاته « حديث الصومعة » و « في ظلال الحرية » و « شهد وعلقم » الوان من نقده العنيف ، واتسم اسلوبه النثري بالانسانية والوطنية ونقد المجتمع .

وكان من اصدقائه الادباء والشعراء : خليل مطران ، احمد نسيم ، احمد شوقي ، محمود واصف ، احمد الكاشف ، ابراهيم العرب ، امام العبد ، محمد الاسمر ، احمد زكي باشا : حافظ محمود ، سليم سركيس ، محمد الهراوي ، حسن القاياتي ، زكي مبارك . وكان على صلة وثيقة بالمويلحي الكبير والمويلحي الصغير وبالسيد عبد الرحمن الكواكبي وكان يحضر مجالسه !.

واحبه اعلام الفن في مصر امثال الشيخ سلامة حجازي ، عبده الحمولي ، محمد عثمان ، عبد الحي حلمي ، منيرة المهدية ، ام كلثوم الشيخ محمود صبح ، السيد درويش وغنى اكثرهم قصائد من نظمه !

ومن اصدقائه الممثلين : عبد الرحمن رشدي ، جورج ابيض ، علي الكسار ، نجيب الريحاني وله فيهم مداعبات شعرية طريفة .

واشتهر الدباغ بالظرف والدعابة وخفة الروح واعتبر من امراء المرح والفكاهة والنكتة « البطنة » وكثير من النكات المنسوبة لحافظ وامام العبد هي من بنات افكاره ولقد صحح هذا ابن شقيقه الاستاذ مصطفى درويش الدباغ في كتابه « وحي الشاطىء » . وكان الدباغ واحدا من المحدثين الاربعة في مصر وهم : حافظ وامام العبد ومحمد لطفي جمعه وابراهيم الدباغ .

وفي الحرب التي نشبت عام ١٩٣٥ بين ايطاليا والحبشة انشأ الدباغ قصيدة في تمجيد الاحباش وصمودهم امام الجيش الايطالي الفاستي ، وقد طرب لها بطريرك الاقباط في مصر وشكر الدباغ على ما جادت به قريحته من شجب لاعتداء القوي على الضعيف ، وتقديرا من غبطته لتلك القصيدة زاد تبرعه لمنكوبي الاحباش مبلغ الف جنيه ، ومن تلك القصيدة قوله :

يا باعث الاقلام من كبواتها   لا ذقت وخز البيض من ماضيها
نزلت مساعير الوغى عن حقها   ما للمزاكي الحمس لا تذكيها !
الحرب مندلع اللسان لهيبها   لا بد ان تأتي على صاليها
أهي القيامة يرهبون قيامها   اعوان عزرائيل تحشر فيها ؟

ومنها :

ارض النجاشي المتوج ما نبا   بالضيف وادينا ولا واديها
ما بالها وثبت قبيل وبالها   تفري براثنها شبا غاديها

والشاعر (الاصيل) لا يعرف كنهه وجوهره ويقيم شعره ومواهبه

البدوي الملثم

•

الا شاعر (اصيل) كالاستاذ عادل الغضبان الذي تولى تقديم كتاب « في ظلال الحرية » لشاعر فلسطين المرحوم ابراهيم الدباغ وقد جاء في تقديمه :

« ما اكثر ما ازدحمت الارض بالشعراء ، وما اكثر من ادعى الشعر من ابنائها .. ولكن ما اقل ما كتب له الخلود منهم فكانت آثاره في الصالحات الباقيات ، وهل يكتب الخلود لشاعر الا اذا هبط الارض وفي جوانحه روح سماوية تبصره بمجالي الخير والحق والجمال ، وتوحي اليه باعذب الالحان والاناشيد .

ان روح ابراهيم الدباغ كانت من هذه الارواح السماوية التي يرسلها الله الى الناس بسمة فجر ، ونفحة زهر ، وجلوة سحر . ومهما تلاشى الفجر وذبل الزهر وبطل السحر ، فوراء هذه الروائع اثرها في القلوب والنفوس لا يتلاشى ولا يضمحل ، وربما اعرضت هذه القلوب وهذه النفوس عن تلك الروائع وهي حاضرة وتفقدتها بعد ضياع .

وكذلك كان شعر الدباغ نورا روحانيا يتألف من نفس موهوبة ، ولحنا قدسيا ينبعث من قلب رحيم شفيق ، فان كان قد لاقى من الزمن عنتا وارهاقا ، ومن ابناء هذه الفانية اغفالا وانكارا فقد نسج الخلود له اجمل ثوب من التذكار اضفاه على روحه وعاطفته ، ليحيا به على توالي الحقب والازمان !

ولو انه اراد ان يتمسح بالزمن ويتذلل له ، وان يتخلق بغير ما تتحلى به نفسه الكريمة من اخلاق وشمائل لكان من دنياه في دعة ، ولرفعه الرياء والمداجاة والصغار والهوان الى مراقي العزة والمجد .

ولو انه فعل لما خرج عن طبيعة هذا البشر المخلوق من ماء وطين ، ولكن نفس الشاعر اكرم عنصرا من ان تتلوث بهذه الاوحال : لقد تطهرت من خبث ومن دنس   فلست يا نفس من ماء ولا طين !

وضمير الشاعر يأبى الا ان يكون في المكان العالي من العزة والكرامة والشرف والفخار ، فالشاعر من الضمير الصعب المراس في هم مقيم حتى ليود لو يفقده ويرتاح منه :

لي ضمير به شقيت فيا من   يشتريه يريحني من ضميري
انا منه في حالتين فما زلت   أميرا عليه وهو اميري
يرغب الاصغرون منه صغارا   وهو يأبى الا مكان الكبير

فاخر بحياة هذا ديدنها وتلك اخلاقها ان يرذلها العيوف وان يتمنى الخروج منها الى عالم الطهر والهناءة ، افندهش اذا مرض الدباغ مرضا شديدا جعل الموت عنده الذ طعما من الفاكهة ، واطيب شذا من الفاغية ، فالتمسه فلم يجده زائرا ولا مسلما فقال :

مرحبا بالموت ان زار واهلا بالمنايا
ايها المنكر ما للموت من بعض المزايا

ترك دنيا علمت ابناءها صنع الدنايا
وارتياح من حياة تعبت فيها الرزايا

ولقد بلغ الدباغ من رقة الشعور حدا دفعه الى التوجع حتى للنبات . فمذهبه في ذلك مذهب كسرى انو شروان الذي رأى « وردة » ملقاة على الارض فالتقطها قائلا : « رمى الله من رماك ، واهان من اهانك ! » . والدباغ لا يكتفي بهذا الدعاء السلبي بل يردفه بلوم الجاني وتقريعه والبكاء على الزهر في مأساته :

ايها الغادي الى الرو   ضة كم غصن ثنيت ؟!
ضحك الزهر ولـ   ـكني على الزهر بكيت !

ويتبع اللوم والتعنيف بالتوعد والتهديد فيقول :

يا ثاني الغصن دع للغصن نضرته   وخل قامته من كل تكسير
وخل للروض والاغصان زينتها   وغادها بين مشموم ومنظور
كم وردة جرحت كفا بشوكتها   وزهرة مزقت احشاء هيصور!

وكيف لا يحيط الزهر بهذه الرعاية وهو نديمه وجليسه ؟ يغنيه عن صداح القيان ورشف الكؤوس ويملأ فراغ وحدته ، ويؤنسه في حبسه .. حبس العمى :

تخيرت بين الماء والزهر مجلسا   فلا غاب ندماني ولا فض مجلسي
مدامي حديث من كتاب وشاهد   فلا صوت صداح ولا رشف اكؤس
وكنت احب الورد بهجة ناظر   وما زلت اهوى الورد راحة معطس
وما كادني حبس العمى اذ ألم بي   وقد طال في سجن من الجسم محبسي

ومن يتقص اسباب الرقة في قلب الدباغ الشاعر تتجل في شريعة المحبة التي يدين بها . فكل الناس في عرفه يجب ان يكونوا اخوة اشقاء .. حتى الارض والسماء يجب ان تجمعهما صلات هذه القربى التي تعتز بها الارض فيقول بلسانها :

السبعة الشهب بعض اهلي   وسابحات الفضاء قومي
ومن بناتي بنات نعش   مرحن يتما بغير يتم
ومن جمالي جمال ليلى   ومن نسيجي ثياب نعمى
الطين اصل والروح فرع   في يوم بدء ويوم ختم

ويرى الشاعر صور آلام البشر واوجاعهم .. يراها بين جدران الاكواخ المظلمة المعتمة ، وما هي الا قبور الاحياء وبيوت الاحزان تتردد في زواياها انات المعوزين البائسين الذين ما توانوا عن عمل يبنون به ثراء اخوانهم في الانسانية ومجد اوطانهم :

نازل الكوخ رقيق الحال بالرفق خليق
يرد الماء ويكفيه قليل من سويق
وعلى اكتافه قام بنا المجد العريق
سعة الارض بمن فيها على البعض تضيق
دخلوها رحبة الصدر وباتوا في مضيق

يراها في « ولوغ اهل الجشع والطمع في اموال اليتامى حتى ليحاول بعضهم قتل وصي على ايتام ليحل محله » :

ارى فئة الحراس ترعى وتمتري   بمال يتيم او بميراث قاصر
وقداقعد الجوع اليتامى على الطوى   تئن وقد فاضت دموع الحرائر

يراها في خسة الانسان وغدره وجوره وكفره ، وهي عوامل تنثر سهام الشقاء في الناس وتقضي على عناصر السعادة فيهم ، أفكان الدباغ ظالما الانسان لما قال :

فاذا يئست من السعادة فالتمس   جوا خلا من خسة الانسان !

يراها في الرذيلة يتمرغ في حمأتها كل صغير العقل ، جبان القلب ، خائر النفس :

يبعثر هذا ماله في مقاصف   وينفق هذا ارثه في مواخر

ولا يرضى الدباغ ان يرسل الحكمة الخالدة والعظمة الزاجرة دون ان يشفعها بآهة تفيض بذكر قسطاس العدل وتذكير القوي السادر بنعمة الدهر عليه :

آه لو حوسب القوي على البغـ   ـي ونال الضعيف بعض الحقوق

لفتحنا للخير كل سبيل   وسددنا للشر كل طريق

واذا بكى الدباغ على الحرية المكبلة بالاغلال ، او سعى الى تحريرها فانما يقصد حرية الناس طرا :

يا سائلي عن هوى نفسي وبغيتها   من الحياة وقد غصت بتكدير
هواي تحرير اهل الارض من ملأ   من الهداة واقطاب الدساتير
فكل نفس لها من سعيها امل   ولا تنال مناها دون تحرير

على ان الحرية لا تدرك بالتعلة والرجاء ، ولا تفك اسارها قوافي الشعر ، بل تدرك بهمم الاحرار وتضحيات ابنائها المخلصين في سبيل الشرق العربي :

اين الفتى العربي المستعان به   يوم الكريهة ، هل ضاع الفتى العربي ؟

بعد ان فقد الدباغ بصره لاذ بالوحدة وجنح الى التشاؤم ، وكانت تعلته شعرا سوداويا طافحا بألوان من التطير والهرب من (الانسان) وحبس نفسه في مخدعه وراح ينشد نفسه :

الى حبسي الى حبسي   لقد تاقت له نفسي
وما خوفي من الجن   ولكن من بني الانس
وما تخلو حياة الوحش   من خوف ومن انس
وبأس من نعيم العيش   اسلمني الى البؤس
فيا كأس الاسى هـ   ـلا ملأت من الاسى كاسي ؟

وفوق الدهر الخؤون الى قلب الشاعر سهام غدره مقابل غدر الزمان بالكشف عن سوءته والايماء الى سوء فعله :

كم ارى من مكائد الدهر ارمي   بسهام ، قد سددتها اليا
لم تدع لي درعا ، وكم مزقت لي   كبدا ذائبا ، وقلبا شقيا
وحياتي التي ثقلت عليها   ثقلت ، وهي دون وزني عليا !

فلسطين في شعره : في صيف عام ١٩٢٧ دك فلسطين زلزال قاصف دمر العشرات من المنازل واودى بالعشرات من الانفس فهلع قلب الدباغ لما اصاب موطنه الاول ، وفاضت نفسه ألما لما انتاب مدارج طفولته فانشد :

الدمع والغيث رزم   ايهما الذي انسجم
فاضا على طول العرا   ء والجبال والقمم
فما الذي ضرهما   لو وقفا عند العلم ؟!
او سكنا مع الريا   ح عند ابواب الحرم ؟!

واغرق الانكليز فلسطين برا وبحرا وجوا بالهجرة اليهودية مشروعة وغير مشروعة ... فتفادى ابناؤها الاشاوس الى اضراب عام شامل دام ١٨٠ يوما . وظل هذا الحدث الفذ حديث القاصي والداني فنظم الدباغ قصيدة بعنوان « فلسطين الجريح » قال منها :

يا هضبة المجد الاثيل وصفحة الـ   ـروض الجميل ، ولمعة الزند الوري
نقشوا بساطك بالدماء فطرزوا   بالورد حاشية اللواء الاخضر
لما سقوه الورد جاء نباته   جمرا على قلب العدو المجتري
وسقوا ترابك بالدموع وانما   عابت على الياقوت بذل الجوهر
لا تركبي هجن الهوادة وانشري   غرض العدا عند العتاق الضمر
بالكير ينطبع الحديد صوارما   ويذيب نفس القين ان لم يصهر
قدم الجناة لصدهم فتقدمي   اذ اقدموا ، وبغوا ولا تتأخري
يجنون من ثمرات ارضك غرس ما   فرضته احكام الاثيم على البري
سدوا الثغور بهجرة زخارة   رعناء ، مقبلة ليوم مدبر
وتعجلوا منها العذاب فجاءها   متقدما في صورة المتأخر
يجدون من كوخ الفقير وقوته   رزقا يضن عليه مخرج «فلتري»
في كل شبر من فلاة مدينة   جند واعوان وقائد عسكر
وبكل منبت حبة من ربوة   ذنب لغير الفتك لم يتنمر
في ازرق من ازرق او ابيض   في ابيض او اسمر في اسمر
هبت رياحك يا جبال فأوبي   معهم ، وتسمرت الحروب فشمري
ارهفت بـ «الاضراب» سيفك فاضربي   مثلا ، يخلده اختلاف الاعصر
اغنيت يوم البيع تجار العدا   وغنيت في سوق الردى من يشتري

قل للألى حسبوا الطوالع بيعة   لاقيتمو في الافق نحس المشتري

وكشر المستعمر عن انيابه وكاشف عرب فلسطين بعزمه على تهويد بلادهم رغم انوفهم وتقديمها لقمة سائغة « لليهودي التائه » فنظم الدباغ قصيدة بعنوان (يا وطني الاول) قال منها :

يا وطني الاول لست وطنا   الا لتلفيق الحديث المفترى
انجلترا شيدت استقلاله   ودكت استقلاله انجلترا
كم اطلعت من افقها وقدسها   اخت ثريا غيبوها في الثرى
كم سهرت في حبها عين السهى   وعلمتني في هواها السهرا
يحمل ريا طيبه ووردة   محبب الروحات محمود السرى
لا ضقت بين زرعه وضرعه   صدرا ، ولا عاتبت فيه القدرا
غادرها الترك الى امثالهم   بطشا ، لتبك العين منه الاثرا

وعلى اثر الحوادث الدامية التي شهدتها جبال فلسطينوسهولها عام ١٩٣٨ اشاد الدباغ بدم الشهداء وانشد :

من رام تفسير الحياة لقومه   فدم الشهيد يبين عن معناها
لولا الدماء تراق لم نر امة   بلغت من المجد العريض مناها
كم امة لم ترق عادية الردى   لولا الذي اقتحم الردى فوقاها
تسمو الشعوب بكل حر ماجد   وجبت عليه حقوقها فقضاها
بخل الزمان فكنت من شعرائها   يا حبذا لو كنت من قتلاها
في دولة للمسلمين تشوقهم   ايامها وتهزهم ذكراها
امم هوالك ما لمست جراحها   الا بكت وبكيت من جراها
ان الذي خلق السهام لمثلها   جمع المصائب كلها فرماها

وعندما صدر الكتاب الابيض عام ١٩٣٨ هال الشاعر الدباغ ان يرى موطنه الاول نهبا مقسما لشذاذ الآفاق .. فانشد قصيدة مطولة عرج فيها على لعبة التقسيم ومنها :

جعلوا من التقسيم لعبة ساحر   حتى تكشف للعيون غطاؤها
فتماسكت اجزاؤها وتجمعت   آراؤها وتنافست زعماؤها
ومن الشرائع للشرائع وازع   بيد الاساة وفي الطبائع داؤها
تمضي النفوس مع الهوى فيبغيها   حينا وقد يزع النفوس حياؤها
قد مكنوا اعداءها من طعنها   برماحهم ، فهمو اذا اعداؤها
القتلها بالسيف ، وهي أخيذة   جئتم ، وفي امكانكم احياؤها
الغوا العقيدة والعدالة والنهي   وبلاء كل عقيدة الغاؤها

من آثاره القلمية :

١ ـ الطليعة (الجزء الاول) : ديوان شعر طبع عام ١٩٢٦ وقد ضمنه الدباغ قصائده الوطنية عن مصر وفلسطين .

٢ ـ الطليعة (الجزء الثاني) : ديوان شعر طبع عام ١٩٣٨ وقد ضمنه الدباغ قصائده الوطنية عن مصر وفلسطين ، وفيه الوان من منادراته ومفاكهاته واخوانياته .

٣ ـ حديث الصومعة ، مجموعة من الرسائل في الادب والفن والنقد الاجتماعي كان يوجهها الى ابن اخيه الاستاذ مصطفى درويش الدباغ (نزيل يافا) .

٤ ـ في ظلال الحرية : وسائل ومقالات في الادب والنقد .

٥ ـ شهد وعلقم : مقالات ادبية وقصائد منوعة .

٦ ـ تاريخ الحرية في العالم .

٧ ـ الشعراء قديما وحديثا في الميزان

٨ ـ رسالة في التصوف وابي العلاء

٩ ـ اربعة دواوين شعرية تشمل شعر الصبا مما نظمه قبيل الحرب العالمية الاولى والى سنة ١٩٢٠ . فقدت هذه الكتب (٦ و ٧ و ٨ و ٩) في يافا بعد ان احضر ابن الاستاذ مصطفى درويش الدباغ مكتبة عمه من القاهرة الى يافا وآل امرها الى اليهود ولو جمعت آثار الدباغ من منظوم ومنثور لانتظمت خمسين كتابا .

وفي ٢٦ شباط ١٩٤٦ توفي شاعرنا الدباغ في القاهرة فشيعته مصر حكومةوشعبا وسار في نعشه الادباء والكتاب ونعاه صديقهالدكتور زكي مبارك الى العالم العربي ، واقيمت حفلتا تأبين له في يافا والقاهرة اسهم فيهما كبار ادباء القطرين وفي طليعتهم شاعر الاهرام الاديب الكبير الاستاذ محمد عبد الغني حسن ، ورثاه الدكتور زكي مبارك بقصيدة القاها في حفلة التأبين التي اقامتها القاهرة وفيها يقول :

فقدت وما فقدت سوى صديق   اعز علي من شعري ونثري
اديب كان كالعسل المصفى   واقوى في نهاه من « المعري »
جنت دنياه ما شاءت عليه   فجازاها بلحن منه بكر
تأيم لا تساكنه عروس   فما يسمو اليه اي صهر
اديب كانت الدنيا لديه   بدائع يجتليها كل فجر
ولحنا من اغاريد القوافي   فقل ما شئت من فن وسحر
صديقي كان وا أسفي عليه   على المفطور من بر وطهر
أ « ابراهيم » مت .. اجب فاني   اكذب كل يوم ما يقال
حملت النعش استوحي لظاه   واسأل ما المآب وما المآل
غريبا مت في بلد غريب   له في كل معركة صيال
بمصر دفنت يا روحا عزيزا   فريدا لا يقام له مثال !

واخيرا ودع « الدباغ » هذا العالم الجاني ، حميد السيرة ، طيب السريرة ، ولم تغره اباطيل الدنيا الغرور ، ولم تخدعه مباهجها المنمقة ، ولا بهارجها المزوقة !

عمان ـ الاردن   البدوي الملثم

سمراء

سمراء يا حقلا من القمح
حامت عليه بلابل الدوح
وانساب فيه جدول غرقت
في موجتيه نجمة الصبح
وعلا جوانبه يظللها
دوح وريف الظل والفوح

سمراء يا حلما يمر على
رجل بلا سيف ولا رمح
قد ودع الدنيا وفرحتها
ليعيش بقياه على سفح
عيناك ... ، والآفاق مطرقة
قد ايقظت همساتها جرحي
فتنفس القلب الذي رغبت
اوتاره ، ردحا ، عن الصدح

سمراء والذكرى تلوعني
وتشدني جرحا على جرح
فاستلهمي عيني ، فان بها
شيئا سيغنيك عن البوح
موجا وأشرعة مروعة
وبقية من قلبي السمح

بغداد   حسين جليل

ابن بطوطة بين الاخية والخواتين

بقلم محمود الشرقاوي

* * *



من اجود واشوق ما كتب ابن بطوطة في رحلته حديثه عن بلاد الترك وبلاد القرم . ومن اكثره تشويقا واغرابا ما سجله عن : الاخية - الاخوة - الفتيان » الذين لقيتهم في تلك البلاد ، وعن النساء « الخواتين » وهذا بعض حديثه عنهما : «(*)»

الاخية الفتيان : يبدا ابن بطوطه وصفه بلاد الروم : « الاتراك » فيقول :

اهلها : (اجمل الناس صورا وانظفهم ملابس واطيبهم مطاعم واكثر خلق الله شفقة ، ولذلك يقال : البركة في الشام والشفقة في الروم) بهذه الكلمات الطيبات بدأ ابن بطوطه حديثه عن بلاد الروم . وما فصله من الاحاديث والاخبار عن زيارته لها ينبيء عن ذلك ويفصح ، وبخاصة تلك الانباء والاحاديث عن طائفة « الاخية » التي كانت منتشرة في كل بقعة من البلاد ، والتي كان افرادها مثلا فريدا في الشهامة والمروءة والكرم وصفاء النفس والتهافت على استضافة الغريب والقيام على خدمته : يصفهم ابن بطوطه بقوله(1) : (لا يوجد في الدنيا مثلهم اشد احتفالا بالغرباء من الناس واسرع الى اطعام الطعام وقضاء الحوائج والاخذ على يد الظلمة ومن لحق بهم من اهل الشر ... وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية في كل بلد ومدينة وقرية .) وكان نظام هذه الجماعة ان يختار اهل كل صناعة نقيبا لهم ، ويكون النقيب وجماعته من الشبان العزاب ، ثم يبني هذا النقيب زاوية ودارا للضيافة . ويشترك الجميع في نفقاتها وخدمتها ونفقات ضيوفها ، ويخرج الجميع الى صناعتهم وعملهم ثم يجيئون في العصر بما كسبوا فيشترون به الطعام والفاكهة ويضعونه بين يدي نقيبهم فاذا شهدوا ضيفا او غريبا او سمعوا ان واحدا من هؤلاء نزل بلدهم او قريتهم انزلوه في زاويتهم ، وهي دائما مفروشة مضاءة بالسرج والقناديل ، ولا يزال الضيف او الغريب مقيما عندهم يأكل الطعام الطيب والفاكهة التي يجمعونها ويقدمونها الى رئيسهم عصر كل يوم حتى يستريح او يرغب في السفر . فاذا لم يجدوا ضيفا اجتمعوا على طعامهم وشرابهم فاكلوا وشربوا وغنوا ورقصوا في زاويتهم ثم انصرفوا الى بيوتهم ، وفي الصباح يقومون لاعمالهم ثم يجتمعون في العصر بما كسبوا واشتروا من الطعام والزاد ، وهكذا كاليوم السابق .

وقد التقى هؤلاء الفتيان الاخوة بابن بطوطة اول دخوله بلاد الترك فتحدث بعضهم الى بعض باللغة التركية - وكان لم يتعلمها بعد - فلما انتهى من حديثه سأل صديقا له : هل تعرف ما يقول الرجل .. ؟

ثم اخبره بأنه يدعوه ومرافقيه الى ضيافته ، ونظر ابن بطوطة الى ثياب الرجل وهيئته فاشفق عليه ولكنه لم يشأ ان يرد ضيافته امامه فيخجله ، فلما انصرف قال ابن بطوطة لصديقه : هذا رجل ضعيف لا قدرة له على ضيافتنا ولا نريد ان نثقل عليه . فضحك الصديق وقال له : هذا فتى من الاخوة وهو خراز ولكنه كريم النفس واصحابه نحو مائتين قدموه عليهم واختاروه نقيبا ، ثم شرح له نظامهم وانبأه بحالهم . فاذا جاء المغرب قدم الفتى الخراز فأخذ ابن بطوطة ورفاقه الى زاويته فوجدوها حسنة مفروشة بالبسط الحسان معلق فيها الكثير من ثريات الزجاج العراقي والمواقد النحاسية الجميلة والفوانيس عليها خادم خاص بها ، وكان في الزاوية جماعة من الاخوة في لباس حسن ونظام حسن في وسط كل واحد منهم سكين طوله ذراعان . ويجلس الجميع وفي الوسط وضعت مرتبة للضيوف . فلما استقر ابن بطوطة ومن معه في مجالسهم جاء لهم الاخوان بالطعام الكثير والفاكهة والحلوى ثم اخذوا يغنون ويرقصون حتى انصرفوا عنهم اخر الليل وهم يعجبون من سماحتهم وكرم نفوسهم .

وفي جميع البلاد والقرى كان هؤلاء الاخوة الفتيان يتلقفون ابن بطوطة ومن معه فيصنعون معهم هذا الصنيع الذي يصنعوه مع كل ضيف قادم . ويقول ابن بطوطة انه نزل قرية صغيرة عند امامها ، فجاء الاخوة لاستضافتهم ولكن الامام ابى عليهم ذلك ، فجاء الفتيان بطعامهم وضيافتهم الى بستان واحد منهم ، وكذلك الجميع فاكلوا وسمروا . ثم يقول انه وقومه لم يكونوا يعرفون لغة القوم ، كذلك هؤلاء لا يعرفون العربية ، ومع ذلك امضوا يومهم كله في هناء ومرح وسعادة .

وعندما دخل ابن بطوطة وقومه مدينة « لاذق » أزعجه ، وهم يمرون في سوقها ، ان رأى جماعة يخرجون من حوانيتهم فيمسكون بأعنة خيلهم ، وبرز آخرون ينازعونهم ذلك حتى سل كل من الفريقين السكاكين ، وخاف ابن بطوطة وقومه وظنوا انهم لصوص قتلة . وسخر الله عند ذلك رجلا يعرف العربية فسأله ابن بطوطة عن شأنهم فقال : هم فريقان من الاخوة الفتيان ، يريد

(*) فصل من كتاب : « رحلة مع ابن بطوطة » تحت الطبع بالقاهرة

(1) ما تزال بقية منهم تقيم في منطقة اربل وكركوك بالعراق تسمى : « الكاكائية » أو «الاخية» ، « الاخوة » ، « الاخوان . »

كل فريق ان يستضيفكم ، ولم يقع بين الفريقين شر ، بل رضوا ان يقترعوا على الضيوف ، وذهب القوم الى من وقعت عليهم القرعة ، فجاء باقيهم وسلموا واخذوهم الى زاويتهم وجاءوهم بالطعام الوافر الجيد . وذهب رئيسهم مع ابن بطوطة وقومه الى الحمام فكان يقوم على خدمته بنفسه ويقوم اصحابه بخدمة رفقاء ابن بطوطة ، وكان الثلاثة والاربعة يخدمون واحدا من الضيوف ، وبعد الطعام والفاكهة والحلوى قرأ القراء آيات من القرآن ثم اخذوا في الغناء والرقص وارسلوا من اخبر السلطان خبر الضيوف فبعث يطلبهم . فلما عاد ابن بطوطة ومن معه من زيارة السلطان وجدوا الفريق الذي لم تقع عليه القرعة ينتظرهم فذهبوا بهم الى زاويتهم ، وهناك صنعوا معهم مثل ما صنع الاولون وزادوا عليهم ان صبوا ماء الورد على ايديهم بعد خروجهم من الحمام . واقاموا عندهم على هذه الحال اياما . وقد لقى ابن بطوطة وقومه من الاخوة الفتيان في بعض البلاد والقرى اكثر مما لقي وروى في هذه القصة .

ويقول ان بعض الفتيان الاخوة هـؤلاء كان يتولى منصب القضاء ، وبعضهم كان شريفا يتولى النيابة عن ملك العراق ، وكان بعضهم من الامراء والحكام ، وكانت البلاد التي لا يوجد بها حاكم تخضع لحكم الفتى من الاخوة فيها . وله نظام الحكام في ركوبه وخروجه . وبعضهم كان من الزهاد الصالحين . وحينما سار ابن بطوطة في تركيا شمالا وجنوبا وشرقا وغربا كان ينزل عند واحد من هؤلاء الفتيان . وكانت زواياهم لا تنطفىء نارها في الشتاء ابدا ، يضعون في كل ركن من اركان الزاوية موقدا ويصيفون فوقه مداخن يصعد منهـا الدخان فلا يـؤذي الزاوية ولا من فيهـا .

الخواتين : ومن ابرز ما لفت نظر ابن بطوطة ولفت انظارنا اليه من خبر تلك البلاد حديـث « الخواتين » ، والخواتين جمع « خاتون » وهي السيدة العظيمة او زوجة السلطان ، وحديثه عنهن يشعر بتلك المكانة الممتازة الرفيعة التي كانت لهن ، كما يشعر بالثـراء الفاحش والترف العجيب اللواتي كن يعشن فيه ، ويدلنا على ما كن يتحلين به من الفضائل . كان للسلطان « محمد أوزبك خان » الذي زار ابن بطوطة القرم في ايامه ، اربع من الخواتين ، ولكل واحدة منهن منزلة ومقام على ترتيب خاص ، ولكل منهن مراسم على قدر هذا المقام . يصف ابن بطوطـة دخوله علـى احداهـن ـ وكانت بنت ملك القسطنطينية المسيحي ـ فيقـول : (دخلنا على هذه الخاتون وهي قاعدة على سرير مرصع قوائمه فضة ، وبين يديها نحو مائة جارية روميات وتركيات ونوبيات منهن قائمات وقاعدات ، والفتيان على رأسها والحجاب بين يديها من رجال الروم فسألت عن حالنا ومقدمنا وبعد اوطاننا وبكت ومسحت وجهها بمنديل كان بين يديها رقة منها وشفقة ، وامرت بالطعام فاحضر ، وأكلنا بين يديها وهي تنظر الينا . ولما اردنا الانصراف قالت : لا تنقطعوا عنا وترددوا الينا وطالعونا بحوائجكم ، واظهـرت مكارم الاخلاق وبعثت في اثرنا بطعام وخبز كثير وسمن وغنم ودراهم وكسوة جيدة وثلاثة من جياد الخيل وعشرة من سائرها) . وقد سافر ابن بطوطة مع هذه الخاتون بعد ذلك الى القسطنطينية .

وعندما زار أولى الخواتين ، اقرب امرأة الى قلب الملك ، امر بعض مرافقيه بأن يتلو آيات من القرآن « على طريقة المصريين » واخذت الخاتون قدحـا من الخشب الرقيق الخفيف وقدمته لابن بطوطة فشرب ما فيه من « القمو » : النبيذ ـ لاول مرة ـ وهذه نهايـة التكريم عندهم ، ولذلك لم يستطع ان يرد القدح .

وكانت « الخاتون » اذا ركبت تجلس في عربة من الفضة المموهة بالذهب او من الخشب المرصع ، والخيل التي تجرها مجللة بأثواب الحرير المذهب وتجلس الخاتون في العربة وعن يمينها سيدة يسمونها « الوزيرة » وعن يسارها اخرى تسمى « الحاجبة » وبين يديها ست مـن الجواري الصغار فائقات الحسن باهرات الجمال ووراءها اثنتان منهن تستند اليهن ، وعلى رأسها تاج صغير مكلل بالجواهر وريش الطاووس ، وعليها ثياب من الحريـر المرصع . وعلى رأس الوزيرة والحاجبة « مقنعة » حرير مزركشة الحواشي بالذهب والجواهر ، وعلى رأس كل واحدة من البنـات اخرى مزركشـة بالجوهـر وريش الطاووس وهن يلبسن ثيابا من الحرير المذهب ، وامام موكب الخاتون هذا يسير عشرة او اكثر من الفتيان الروم والهنود وقد لبسوا الحرير المذهب المرصع بالجوهر وفي يد كل واحد منهم عمود من الذهب او الفضة او مـن الخشب الملبس بهما ، وخلف الموكب تسير نحو مائة عربة في كل واحدة منها الثلاث والاربع من الجواري في ثياب من الحرير ، وخلفها نحو ثلثمائة عربـة تجرها الجمال والبقر تحمل الثياب والخزائن والطعام ومع كل عربة خادم موكل بها متزوج بجارية من الجواري اللواتي يرافقـن ركب الخاتون . ولا يدخل احد من الرجال الا من كان زوجا لجارية في ركبها . وكل واحدة من الخواتين تسير في ركب هذا نظامه وعدد عرباته .

فاذا جاءت احدى الخواتين لحضور مجلس السلطان قام لها السلطان واخذ بيدها حتى تصعد على السرير ، اما الملكة فانه يستقبلها على باب المجلس فيسلم عليهـا ويأخذ بيدها فاذا صعدت على السرير وجلست يجلس السلطان ، كل ذلك على مشهد من الناس بعد صلاة الجمعة ، ثم يجيء بعد ذلك ابناء السلطان واقرباؤه وكبار دولته . ويدخل الناس بعد ذلك للسلام على السلطان ، حتـى يؤدون صلاة العصر فتركب كل خاتون عربتها وتسيـر على النسق الذي وصفنا ، وفي هذه المرة يكون امام كل

الى هدى

طبع ارقُ من الندى
وملاحة ملء المدى
حدثتها والوقت لا
ما ضاع في شرعي سدى
ربي يصون جمالها
مستبعدا عنها الردى !
فلها قوام مثل قد
الرمح في عيني بدا
فكأنه غصن مليء
بالثمار تأودا ...
هي ان تحدّث خلت
طيرا فوق مبسمها شدا
واذا مشت في خطوها
لحن يردده الصدى
فيها اللطافة خلقة
ومثيلها لن يوجدا
((فهدى)) اضاعت عقل
شاعرها فعاد بلا هدى !

زحلة ـ لبنان رياض معلوف

عربة نحو خمسين جارية راكبات الخيول ونحو عشرين من كبار النساء يركبن الخيول ايضا ، وخلف الجميع نحو مائة مملوك من الصبيان ومثلهم من كبار المماليك يمسكون القضبان ، والسيوف مشدودة على اوساطهم .

وعندما ترك القرم قدم له سلطانها الفا وخمسمائة دينار وخلعة وافراسا كثيرة ، واعطته كل خاتون سبائك الفضة ، واعطته بنت السلطان اكثر منهن وكسته وقدمت له ما يركبه في رحيله . (واجتمع لي من الخيل والثياب وفراء السنجاب والسمور جملة) .

* * *

وقد عرفنا حديثه عن « الخاتون » زوجة السلطان التي كانت بنت ملك الروم ، وهي التي سافر ابن بطوطة في ركبها الى القسطنطينية ، وكانت هذه الخاتون حاملا وهي تقوم برحلتها هذه فرغبت الى زوجها السلطان في ان يأذن لها بالسفر الى ابيها لتضع حملها عنده ، ورغب ابن بطوطة الى السلطان في ان يأذن له بمرافقة الخاتون وهي تزور اباها في القسطنطينية فخاف عليه السلطان ولكنه اذن عندما رأى رغبته واصراره .

سار ركب « الخاتون بيلون » بنت ملك الروم : « تكفور بن جرجيس » وزوج السلطان محمد أوزبك خان الى القسطنطينية ، ورافق السلطان زوجه مرحلة من الطريق ثم رجع ، ورافقها بقية الخواتين مرحلة اخرى ثم رجعن ، ثم سار ركبها ومعه امير وخمسة آلاف جندي ، وكان حرسها خمسمائة من المماليك والترك ونحو مائتين من الجواري اكثرهن روميات ، يركب الجميع اربعمائة عربة تجرها نحو الفي فرس ونحو ثلثمائة من البقر ومائتين من الجمال ، وكان بعض رجالها من ابناء الهند ولكل جماعة منهم قائد من بني جنسهم ، مسلمين او نصارى او على دين اهل الهند .

هكذا يصف ابن بطوطة ركب « خاتون » السلطان محمد اوزبك خان الذي صحبته معها الى القسطنطينية باذن زوجها السلطان .

وقد لقي الركب شدة وعناء من البرد وطول الطريق ، ومروا على (جبال الروس ، وهم نصارى شقر الشعور زرق العيون قباح الصور اهل غدر ، وعندهم معادن الفضة ، ومن بلادهم يؤتى « بالصوم » وهي سبائك الفضة التي بها يباع ويشترى) في هذه البلاد . ولكن هذه الشدة وهذا العناء كان يخففه عنهم ما يلقون من كرم امراء البلاد التي يمرون بها وحسن ملاقاتهم وضيافتهم وتكريمهم للخاتون في كل منزل تنزله . وكان ابن بطوطة يذهب للسلام عليها في كل صبح ومساء فاذا جاءتها الهدايا ارسلت اليه منها الفرسين والثلاثة ، والغنم الكثير .

فلما وصل ركب الاميرة حدود بلاد الروم عند حصن « مهتولي » استقبلها « تقولا » رسول ابيها ومعه جيش عظيم وتحية كريمة .

ومن هذا الحصن بدءوا يركبون الخيل والبغال بدلا من العربات التي لا يستطيعون السير بها في الجبال والطرق الوعرة . وساروا على هذا الحال اثنين وعشرين يوما حتى وصل ركبهم القسطنطينية . وكان مع الاميرة مسجد متنقل تركته في الحصن كما ترك ابن بطوطة بعض رجاله وغلمانه يحرسون عرباته . وكان رسول ملك الروم « تقولا » كريما مع ابن بطوطة ، بعد ان اوصته به الخاتون خاصة ، حيث علم ان جماعة من قومه ضحكوا عندما رأوا ابن بطوطة ومن معه يصلون فزجرهم تقولا وضربهم .

وقبل ان يصل ركب الاميرة الى قسطنطينية تلقاها اخوها ولي العهد : (في ترتيب عظيم وعسكر ضخم من عشرة آلاف مدرع وعلى رأسه تاج وعن يمينه عشرون من ابناء الملوك وعن يساره مثلهم) وسار الجميع حتى دخلوا القسطنطينية على هذه الفخامة والروعة .

مصر الجديدة محمود الشرقاوي

ادخل نصف جسمه الاعلى في كوة المخبز البلورية ، وصب القهوة في الفنجان لبائع الخبز ، فابدى هذا رفضه باشارة من يده ورأسه بعد ان لوى شفته . شعر ابو رحمو بخيبة مؤلمة ، فسحب جسمه من الكوة العريضة ، واعاد القهوة الى الدلة النحاسية ، ونقر فنجانيه بنغم خاص ... كان يعلم ان بائع اللبن في السوق قد توفي منذ ايام متسمما ، ولا زالت دكانته مغلقة حزينة ، وان اصابع الاتهام تشير الى قهوته . ويذكر انه امضى ثلاثة عشر عاما يوزع قهوته على سوق « باب النصر » ، دون ان يتبقى لديه شيء يطوف به على الاسواق المتفرعة عنه .

ولم يحدث ان اتهمه احد بسوء قهوته ورداءتها .. كلهم كانوا يمتدحون نكهتها .. كلهم كانوا يرتشفونها بتلذذ وهم يفتلون الفناجين بين اصابعهم وشفاههم .

ماذا حدث اذن ؟ الا يمكن ان تكون وفاة بائع اللبن قضية عادية عابرة ! ان الموت شيء حتمي ، والناس متساوون امامه ، ولا دخل لاحد في موت الاخر . وحدث ابو رحمو نفسه .. اذا قدر لي ان اكون سببا في موت احد فانني لم اختر بالتاكيد بائع اللبن.

تابع ابو رحمو جولته على محال السوق ، مطوفا على زبائنه القدامى ، فاجمعوا على رفض قهوته بشكل غريب.. حتى الحاج عبدو الطيب بائع الخزف امتنع عن احتساء قهوته بلباقة ، محتجا بان صحته لم تعد تسمح له بتناولها . فالطبيب قد منعه عن شرب المنبهات . وحاول ابو رحمو ان ينفي عن نفسه تهمة التسبب في موت بائع اللبن :

ـ اذا كنت انا المذنب .. حاكموني .. حققوا معي . قولوا للحكومة ان تقطع رأسي دفعة واحدة .. ولكن لا تتركوني مذنبا يموت كل يوم .. كل دقيقة عشر مرات !

ولكن الحاج عبدو حمل جرة صغيرة وغاب في اعماق دكانته المظلمة صامتا .

رأى ابو رحمو فلاحا يمر من السوق ، تبدو عليه ملامح الثراء ، فاندفع نحوه وقدم له القهوة . وعندما كان الفلاح الوقور يمط شفتيه ويرتشف القهوة ، كانت عيون الباعة في السوق قد امتلات بلوم ، وفاضت بحذر وارتياب .

كسر ابو رحمو الفنجان بحركة متقنة ، بعد ان انهى الفلاح شربه ، تعظيما لقدره ، ولكن الفلاح اكتفى بان دفع له عشرة قروش ، وغادره مختفيا بين جموع المارة ، فلحقه ابو رحمو خطوتين ، ثم توقف صائحا :

ـ وثمن الفنجان ؟!

وسمع صوتا خشنا يقول دون ان يرى صاحبه :

ـ انت كسرته ..

بكى ابو رحمو بصمت ، وهو يدس نفسه بين الناس .. حتى الفلاح الساذج اصبح ذكيا ولم تعد تلك الوسائل الخادعة تقنعه او تجبره على دفع ثمن الفنجان المكسور . ان ابا رحمو لا يكره احدا ، ولكن الناس يكرهونه الان دون منطق . كان يريد ان يوقف كل انسان يراه ، ليدافع عن نفسه ، يثبت انه ليس قاتلا .. انا لم اقتل احدا .. لم اسمم احدا .. عملي كله نظيف .. صحي . قهوتي احمصها بيدي ، اطبخها في قدر خاص . اغلي القهوة مرة واحدة ، وأرمي التفل ولا استعمله . يتهمونني بموت رجل لا اعرف حتى اسمه . صحيح انني قدمت له القهوة سنوات ، ولكن علاقتي به تنتهي بانتهاء القهوة في الفنجان .. حاكموني اذا كنت مذنبا .. حاكموني !

وفجأة لمح ابو رحمو شابا متأنقا يعبر السوق فاسرع اليه يزاحم الناس واستوقفه :

ـ صباح الخير ، سيدي .



وصب فنجان القهوة على عجل ، فما كان من الشاب الا ان دفعه جانبا ، فتبعه ابو رحمو :

ـ استاذ ، كرامة للنبي !

ورد عليه الشاب باقتضاب ونزق :

ـ لا احب الجراثيم .. لا احب القهوة المرة .

اسند ابو رحمو ظهره الى عربة نقل واقفة في السوق ، وهو يمسح عينيه بظاهر كفه . ومرت في خاطره ذكريات قديمة .. تمثل نفسه عندما عمل خادما في عدد من مقاهي المدينة .. تذكر كيف ان جهوده ليصبح كناسا عند الدولة قد فشلت لانه لا يعرف احدا من الكبار .. تذكر بطالته المستمرة



التي اجبرته على ارتكاب اعمال دنيئة .. وعمل حمالا .. وسرق يوما كيس طحين من مطحنة الحي .. وحاول ان ينزل الى المسجد الاموي ليتلو القرآن ، وينشد الموالد ، وتظاهر في يومه الاول بالعمى ، فنجحت حيلته ، ودفعوا له لانه اعمى ، ولم يدفعوا لانه اجاد واحسن انشاد المولد النبوي. ولكن ناظر المسجد طرده عندما اكتشف لعبته . انه يذكر كيف صاح في وجهه ، ملوحا بعكازه :

ـ الله اعطاك نعمة الرؤية ، وانت ترفضها يا كافر ، وتعمي نفسك ؟!

وخرج يومها من المسجد حافيا .

انه يتذكر مطعمه المتنقل الذي انشاه بعد جملة من الاستدانات . فقد عمد الى طبخ مآكل رخيصة كان يضعها في اقدار كبيرة تحملها عربة قديمة للاطفال ذات اربع عجلات . وقد اختار لنفسه زاوية قرب مدخل « باب الفرج » الشرقي ، يعسكر فيها بعيد الساعة التاسعة مساء بعد ان يكون مراقبو الصحة قد انهوا دورياتهم . وفي يوم ، وبينما كان عدد من القرويين والسكارى يلتفون حول عربته يلتهمون اطعمته بكل شراهة وهم يتلفظون باقبح الشتائم والاغاني الفاضحة ، اذا برجال الصحة يهبطون من السماء ويطوقون عربته ، واثر لكمة اصابت فكه الايسر ذاب الآكلون واختفت العربة . وظل اياما طويلة بعد ذلك جوالا دون عمل .

لقد تساوت الايام عنده فلم يعد يفرق بين يوم ويوم ، ولا بين شهر وشهر ، فكلها واحدة لا تتغير ، ولا يهمه منها شيء سوى ذرع الطرقات في ظلمة الليل وضياء النهار بحثا عن سلاح يقتل به خصمه الجوع ، ذلك الخصم الابدي العنيد الذي لا يلهيه غياب شمس او بروز قمر او تهاوي نجم .

ولكن السماء هدته الى القهوة المرة ، فاستخدمها اداة لعيشه . وعندما بدأ في كسب ما يستطيع به شراء بعض المآكل التي حرم منها طويلا ، وجد نفسه مدفوعا لكي يصلي ويداوم على الصلاة في اوقات فراغه ، وحالما يجد نظافته تامة تكفي لمقابلة الله .

لقد منحت الدولة ابا رحمو وساما من الدرجة الاولى ، لا لشيء الا لانه انجب اثني عشر ولدا . لقد دفعه جمع من الناس الى ان يتقدم بطلبه الى السلطات ، وعلموه كيف ينقل الاوراق الرسمية من دائرة الى دائرة مدة شهرين حتى يمنحوه وساما .

كان ابو رحمو يؤمن ان الوسام هو السلاح الالهي الوحيد لصيد الجوع وصرعه ، وهو الذي سيقلب حياته عاليها سافلها .. فاذا به ورقة من المقوى الرقيق ، متوسطة الحجم ، مكتوبة ، عليها اختام وتواقيع ، وصورته في

الزاوية ، تعني ان حاملها بطل لانه انجب اثني عشر ولدا .. اثني عشر بندقية معطلة ، فارغة حتى من رصاصة واحدة ، ومع ذلك تلاحقه الاقوال :

ـ رجل طماع .. عنده طقم من الاولاد ويشتغل !

ـ ملعون .. جلده محشي بالذهب .

ـ ما في راسه ذرة عقل .. ماذا سياخذ معه الى الاخرة ؟

ان اقوال الناس تصبح احيانا اشد ايلاما من موسى حلاقه الثلمة . فهم يعتبرون انجابه هذا الرقم من الاولاد فحولة ورجولة ، وانها نعمة من الله ، عليه الا ينكرها . فالله هو الذي يبعث برزق الولد يوم ولادته .. اما ابو رحمو فيعتبر حظه من اولاده نقمة وغضبا . فولده الاكبر عبد العليم ، هرب منذ خمس سنوات ، وعمره لا يتجاوز العشرين ، وسمع بعد سنة من بعض اصدقائه انهم راوه في بيروت يعمل اجيرا في محل للحلاقة . ثم نقل اليه بعضهم ان ابنه اصبح ثريا لانه يتاجر بشيء اثمن من الذهب ، وانه يسهر كل يوم في ملهى جديد ، ويصرف ويشرب دون حساب .

اما بناته الثلاث المتزوجات فهو لا يكاد يرى وجوههن في العام مرة واحدة . وابنته الرابعة دميمة ، تشبه كما يقول ابو رحمو امها ، لذا فهو يشبعها كل يوم ضربا ويتمنى لها الموت او الزواج ، لانه يعتقد انها سبب نحسه وتعاسته . وما بقي من اولاده فيغيبون مع الصباح في ازقة المدينة العتيقة واسواقها ، وخاصة المحتشد منها بالشارين ، حيث سرقة بعض الخضار والفواكه امر سهل ، وهم يدخنون اعقاب السجائر امام امهم ويشتمونها . ويحصل كثيرا ان يتغيب احدهم عن البيت ليلة او ليلتين لا يعلم احد اين يقضيها .

ان ابا رحمو يذكر بسخرية ما قاله ذلك الموظف الاصلع عندما سلمه الوسام ، وبلهجة ممزوجة بارتياح واطمئنان :

ـ يمكنك ، انت وزوجتك ، ان تركب الباصات والحافلات مجانا . واذا اردت ان تسافر الى اي بلد بالطائرة او بالقطار او الباخرة فانهم لن ياخذوا منك اكثر من نصف الاجرة .

ولا يدري ابو رحمو اي قوة شيطانية اقنعته بالمطالبة بالوسام ، والذهاب الى المصور الارمني الذي يعسكر بآلته خلف دار الكتب الوطنية ليتصور هو وزوجته من اجل الوسام. ان زوجته لا زالت تذكر ذلك اليوم وتعتبره بدء تقويم جديد ، ولا يكاد يزورها احد الا واخرجت صورتها من الصندوق وعرضتها عليه متباهية .. تزوجت ابنتي بعدما تصورنا بشهر .. مات عمي قبل ان تصورنا باسبوع .. نزل مطر كثير ليلة تصورنا ، وتفتحت ابواب السماء ..

لم يزر ابو رحمو المطار يوما ، ولم ير طائرة تقف على الارض هادئة صامتة . انه لا يراها الا محلقة ، بعيدة عنه ، صغيرة لا تتسع لحجم طفل واحد . وهو لم يركب قطارا قط لانه لا يحب صوته . ولا دخانه الاسود الذي يشبه ضباع الشتاء . ثم ما حاجته لان يسافر ، والى اين ؟. وهو في المدينة لا يمتطي اي باص او حافلة ، فقد تعود ان يمشي ، معللا نفسه بان السير على الاقدام ينشط الجسم ويطرد الخمول عنه ، والركوب يعلم الانسان الكسل .

ظل ابو رحمو مدة غير قصيرة مستندا الى العربة ، غارقا في شرود عميق . وعندما تحركت العربة ، احس بها تنزاح عن ظهره فاوشك ان يقع لولا ان تمالك نفسه. ألقى نظرة الى نار الدلة فاذا بها غارقة في طبقة سميكة من الرماد الابيض ، فصب قليلا من القهوة في الفنجان وذاقها ، واسرع بعدها يوقظ النار بزفرات من فمه .

وقف ابو رحمو امام الدرج الجانبي لمخفر « باب النصر » ، وحيا الشرطي القاعد في الفسحة الخارجية . صب له فنجانا ، وانتظر قلقا ان يقول شيئا .. وبسرعة تبدل وجه الشرطي المدور واصبح مجموعة من التجاعيد العميقة ، وتقوس حاجباه .. وبصق على الارض عدة بصقات . وقال :

ـ العمى ! قطران .. قطران ! انت اذن قتلت بائع اللبن .

اراد ابو رحمو ان يدافع عن نفسه ، ولكنه تراجع ساكتا . ماذا يقول ؟ كيف يقنعه ان قهوته لم تتغير . انها من نفس البن اليمني الذي تعود شراءه : « ماذا اصاب الناس حتى يرفضوا قهوتي .. ما الذي دفع ببائع اللبن ان يموت في هذه الايام .. ايريدني ان الحق به . كان عليه ان يمنحني براءة مكتوبة قبل ان يلف بالقماش الابيض.. » ولعنه ، سبه .. وشتم الناس جميعا .

ان ابا رحمو يعتقد ان الموت راحة وخلاص ابدي ، ونادرا ما تخلو احاديثه من ذكر الموت والتندر بطريقة الدفن والتشييع والمراسيم والتقاليد الخاصة به. ان الانسان في اعتقاده ليس اكثر من راكب باص ، وهو يعيد هذا التشبيه في كل حديث ، فكما ان الباص يتوقف ليحمل ركابا جددا في مواقف متعددة ، فانه في ذات الوقت يقذف ويفرغ حمولته من الركاب الذين وصلوا الى مواقفهم . "انها اضحوكة ان يجن الناس بالولادة ، ويتناسوا النهاية . ان الموت بالنسبة الى ابي رحمو مثل تناول كاس من الماء . وهو يعتبر نفسه ميتا منذ ولدته امه . فهو يتساءل دوما عن دوره في الحياة. لو غاب سنة او سنتين فان احدا ما لن يسأل عنه . واذا خطر لاحدهم ان يلحظ غيابه فليس الا لفضول في نفسه . وكثيرا ما تسيطر هذه الفكرة على راسه ، فيتخيل عندما ما سيجري في السوق .. لن يشعر الناس بشيء .. سيقول صاحب المكتبة بعد عدة ايام من غيابه ، « يظهر ان ابا رحمو اعطانا عمره » . وكيف يعرفون انه مات ؟ ان احدا من اولاده لن يخطر بباله ان يطبع اعلانا ينعي والده الى العالم .. واذا حدثت مثل هذه المعجزة ، فسيقولون « ومن هذه الشخصية الهامة ، اننا لم نسمع عنها شيئا»».

ثم ان الجرائد تستحي ان تنشر مثل هذا الخبر التافه ، فان الناس يفضلون انواع جديدة من الشفرات والكولونيا وادوات التزيين . ولن يتطوع خطيب باقامة حفل تأبين يعدد فيه مآثر الفقيد ، فحياته لا تضم شيئا هاما ، ويمكن تلخيصها بكلمتين: اولاد ووسام . من يدري بموته اذن ؟ انهم لا يحتفون به وهو حي يحرك راسه ويتكلم وينقر فنجانيه ، وينادي ويصيح .. فكيف اذا غاب عنهم !

اختطف نظرة الى السماء عبر اوراق شجرة التوت المعمرة .. لماذا لا يعود عبد العليم الان بثياب جديدة .. وسيارة فاخرة .. اركب فيها . ويعطيني مئة ليرة دفعة واحدة اتحسسها .. اتأملها ، احفظ رقمها ، وادقق صورتها .. الا يمكن ان يتحقق ذلك !

وعندما شعر ابو رحمو انه اغرق نفسه في تاملات فارغة من الحياة قام حاملا دلته ، فالتقى ببائع متجول تعود ان يراه دوما في فم الزقاق المحاذي للمخفر :

ـ لم يشرب احد القهوة .. كل الناس صاروا يخافون على صحتهم .

كان البائع منهمكا في مسح تفاحه وصفه ، فاكتفى بان رفع كتفيه وانزلهما ، وكان الامر لا يعنيه . ولم يهتم ابو رحمو بحركة البائع:

ـ ما دخلي بموت بائع اللبن ! لنفترض ان قهوتي مسمومة ، هل يعقل ان تميت رشفة واحدة رجلا .. اذا كنت مذنبا فلماذا لا يحاكموني . قل .

كانت قطة سوداء تموء بالقرب من العربة فتشاغل البائع بطردها قائلا :

ـ الواحد منا لا يعرف كيف يخرج روحه ! قطط وكلاب .. قطط وكلاب .. اين ما اتجهت قطط وكلاب !

واحس ابو رحمو انه ميت فعلا .. فانسحب دون هدف .. انسل الى الشارع العريض فاغرقته ضجة الحياة فيه .

قعد القرفصاء قرب احدى البالوعات

وبــار

أأعود من تلك الطريق ؟
وأسير في الدرب العتيق ؟
درب الاماني العذاب تزفها نبضات قلبي
وتظلها بزبرجدي ظلالها اغصان حبي

أأعود من تلك الطريق ؟
وأسير في الدرب العتيق ؟

كزمان كنت به أسير
متمهلا اطأ الحرير
واطوف فيما حف من روض به متعبدا
ارنو الى الثمر الينيع ولا أمد له يدا

ويشع دربي بالضياء
فلا التفات الى الوراء
واذا دجا ليل الوجود اضاء قنديل الذهب
دربي فابصر نوره ويغيب عن عيني اللهب

أأعود من تلك الطريق
واسير في الدرب العتيق ؟

هيهات .. طال بنا السفر
ألهى عن الورد الصدر
يغشى الضباب معالم الدرب التي استدبرتها
والذكريات تغيم في خلدي اذا استحضرتها

عصفت بقنديلي الرياح
والليل قد بسط الجناح
اختلطت على الساري الدروب فحار يمضي أم يؤوب
أم يستكين الى الذي خطت على اللوح الغيوب

أأعود من تلك الطريق ؟
وأسير في الدرب العتيق ؟

سأهيم في وادي الظنون
ولقد أكون ولا أكـون
ان لم أعد للدرب ثانية فعالمي الضياع
عدم اذن كينونتي ومباهج الروح التباع

تلك الخطى كانت خطاي ؟
أم أن انسانا سواي
ذاك الذي في الفجر اذ عرف الطريق الى ((وبار))
فرحت به ابراجها واستأنست تلك الديار

أأعود من تلك الطريق ؟
وأسير في الدرب العتيق ؟

هل عودة لمدينتي
فردوس روحي .. جنتي
أم هل اظل مكفرا عن وزر والدنا القديم
فأنا الطريد من الجنان .. أنا المشوق الى النعيم

الجزائر جمال مرسي بدر

وراح يصب القهوة فيها . كان الازدحام شديدا الا ان احدا من الناس لم يأبه له ، سوى صبي رآه ابو رحمو اكثر من مرة يتسكع امام باب السينما ، وسمع عن سلوكه مصادفة اشياء معيبة . وعندما نظر اليه ضحـك الصبي ، وقال بخبث ودلال :

ـ معك سيجارة ؟

فقام ابو رحمو حانقا يريد ان يضربه ، ولكن الصبي افلت من يده حـين ابتلعه الزحام . وشعر ابو رحمو بكآبة وضيق ، اذ خطر له ان احدا من اولاده قد يكون على مشاكلة هذا الصبي القذر ، وتمتم : ((انني اذبحهم جميعا لو سمعت عنهـم شيئا ، اذبحهم .. اقطع رقابهم ، واخنق امهم التي ولدتهم .. جيل العقارب . الكلـب يريد سيجارة !)) .

عندما تخلص ابو رحمو نهائيا من القهوة والرماد لمح الحافلة تتهادى عند الموقف ، ووجد نفسه فجأة ، ولاول مرة ، يدافع الناس لامتطائها . وما ان جلس حتى نهره الجابي بصوت هازىء .

ـ الكرسي للسيدات .. يا استاذ !

لم يكن يهمه ان يذهب الى اي جهة كانت سأله الجابي اجرة الركوب فأجابه بصوت فيه انتفاضة ، وتحد :

ـ وسام .

لحظ عددا من العيون تتملـق وجهه .. لحيته ، قبعته الصوفية المتلبدة . وشعـر بضيق وكأن قبضة حديدية تمسك رقبته ، وتمنى ان ينزل سريعا .

حلب جهاد الكاتب

عبد القادر المغربي

بمناسبة مرور مئة عام على ميلاده

★

بكت عليك الربى ، والظل ، والماء ... ومشرق فيه من عطفيك أنداء
غادرتنا منذ اعوام (١) ... فغادرنا ... علم ، وفضل ، واعطاف ، وأفياء
وودعتنا من الاخلاق ناصعة ... وصفحة من جمال الحق غراء
تلك البراعة • من أودى بنفثتها ... فاصبحت وهي تحت الترب خرساء ؟
فلا البيان بها عذب مشارعه ... ولا حدائقه بالفكر غناء
مات الذي لم يفل الدهر عزمته ... ولم تزعزعه في الاصلاح نكباء
ماض الى الحق فيصمت ، وفي دعة ... فلم تجلله يوم الروع ضوضاء
لم يخلق الدهر من مجلو صفحته ... ولا تجهم في سيف له ماء
كم اسأمت قبله الايام من رجل ... فراح وهو لطول العمر بكاء
أعيت «زهيرا» تكاليف الحياة..فلم ... تمض الثمانون الا وهو أشلاء
لكن صاحبنا ما فل مضربه(٢) ... ولم ينل منه اصباح وامساء
الله اكبر ! هذا صلب معدنكم ... عزت له في صلاب الارض اكفاء

يأيها الرائح الغادي ... وفي يده ... يراعة كعمود الصبح بيضاء
يسرى المداد بها نورا كما ائتلقت ... بالنور من ومضات الوحي سيناء
ففي «المؤيد» (٣) ما زالت روائعكم ... تشع منهن افكار وآراء
وفي جريدتك «البرهان» (٤) من أثر ... ما ليس يدركه عد واحصاء
و «البينات» (٥) عليك اليوم شاهدة ... فدون ثروتها للفكر اثراء
في كل ارض لكم بالشرق مستمع ... وللمنابر هزات واصغاء
تحبب الناس في الفصحى، وتجمعهم ... كما تلاقى على الود الاحباء
هذا جهادك لم تنكره حاضرة ... كلا ! ولا جحدت جدواه بيداء
قالوا: سجنت (٦)، فقلت: السجن مفخرة ... لمن تضيق به في الكون ارجاء
لو لم يخافوك لم تقلق مضاجعهم ... ولم تؤرقهمو بالوهم أشياء ..

« المغربي » له في كل مجتمع ... يد على اللغة الفصحى وآلاء
قد كان يدأب مثل النحل ، تجذبه ... فواحة من رياض العلم فيحاء
يروح بين الضفاف الخضر من «بردى» ... «والنيل» وهو كريم الوجه وضاء
على ملامحه سيماء مجتهد (٧) ... وفوق غرته للعلم سيماء
كان البقية من قوم بهم ائتلقت ... واشرقت في دياجي الليل ظلماء
خطاهمو تهتدي الدنيا بموقعها ... وتستبين لها في الحق انحاء
عليك من رحمات الله واكفة ... وفي فم الدهر من ذكراك اصداء

القاهرة — محمد عبد الغني حسن

---

(١) توفي العلامة المغربي في اواخر حزيران سنة ١٩٥٦ ، وولد بطرابلس الشام سنة ١٨٦٧.
(٢) عاش المغربي تسعين عاما فصح فيه الاثر « خيركم من طال عمره وحسن عمله » . (٣) المؤيد هو الصحيفة المصرية التي انشأها الشيخ علي يوسف . (٤) البرهان اسم الجريدة التي انشأها المغربي بحلب سنة ١٩١١ يدعو فيها الى الاصلاح السياسي والاجتماعي في البلاد العربية . (٥) البينات هو اسم كتاب ضخم للمغربي في جزءين، وله مقدمة بقلم السيد محمد رشيد رضا . (٦) كانت حكومة السلطان عبد الحميد تتوجس شرا من كل داعية للاصلاح ، فأوعزت الى خليل باشا البكدشلي والي بيروت باعتقال الشيخ عبدالقادر المغربي ومصادرة اوراقه وكتبه . وظل في السجن قرابة عام . (٧) كان المغربي من تلاميذ الشيخ جمال الدين الافغاني المخلصين .



يوسف عبد المسيح ثـروة

لوركا والمرأة العاصفة

بقلم يوسف عبد المسيح ثروة

* * *

اهتم فردريكو غارثيا لوركا ، عندليب الاندلس ، اهتماما خاصا بالمراة ، وهذا الاهتمام يبدو ــ في اجلى صوره ، واروع معانيه واعمق دلالاته ــ في مسرحياته « العانس » و « زوجة الاسكافي العجيبة » و « ماريانا بنيدا » و « الزفاف الدامي » و « يرما » و « بيت برناردالبا » .

والشيء الذي جلب انتباه لوركا في المراة الاسبانية ، هو محاولتها اليائسة لتحدي الاحوال التعيسة التي تحيط بها فتمزق شخصيتها وتحطم وجودها ، وتخمد آمالها وامانيها ، جاعلة منها اثاثا يشترى ويباع ، ووعاء يحمل الاجيال ، ومتعة يتلهى بها الرجال ، وانثى في متناول الذكر عند الحاجة ، ليس لها من حق غير ان تعرف معاني الطاعة والحشمة والعفة .

القوانين والانظمة والاعراف والتقاليد موضوعة بالدرجة الاولى لكي تتحملها المراة ولكي ينفصل المجتمع الى مجتمعين ، مجتمع سيد وآخر مسود ، السلطان فيه سلطان الرجل والتبعية تبعية المراة ..

كان هذا هو الشأن ولا يزال ، حتى قبل ان ينقسم المجتمع الى طبقات متناحرة تريد كل بنقيضتها الموت والهلاك والاندثار .. ومن ثم فالمراة عار لا بد منه وعورة ينبغي اسدال الستار عليها وابعادها عن الانظار . لانه (ما اجتمع رجل وامراة الا وكان ثالثهما الشيطان) على ما ذهب اليه احد قادة نهضتنا الادبية الحديثة ..

وفي محيط يشابه هذا المحيط ، عاشت المراة الاسبانية وهي مقيدة بالف قيد تلتف عليها خيوط الشرانق ، وتلتهم روحها عفونة البيوت الواطئة ، وتطحن تطلعاتها طواحين العمل المرهق الداكن ، ويشرب دمها اخطبوط لعين ماكر هو اخطبوط النفاق الذي يلبس لكل حال لبوسها ...

المراة مشلولة الاطراف ، مبحوحة الصوت ، منقطعة النفس ، متخاذلة مستسلمة ، مجبرة على كل شيء تطالب به ، مضطرة الى الخنوع الاعمى ، والطاعة التي لا مفر منها .. هي انسانة بالاسم لا بالروح والنفس ولهذا السبب ، لم يعترف بروحها حتى القرن السادس عشر .. وعندئذ فقط اعتبرت روحها مساوية لروح الرجل ..

في هذا المحيط بالذات نشأ الشاعر لوركا ، فعرف معاني القسوة والجور والظلم والطغيان ، واتصل بسمعه ووعيه ووجدانه وقائع وحوادث تتصل بالمراة بوشائج عميقة الجذور . فتأثر بما سمع ووعى ، وهضم كل ذلك على احسن ما يكون الهضم وتمثل في فكره الثاقب احوال المجتمع وما يقاسيه من تناقضات ممزقة عامة وما تلاقيه المراة من هذه التناقضات خاصة ! فاهتزت اوتار قلبه تجاوبا مع الآلام التي تعانيها المراة في بلد كبلده يدعي بالحضارة والتمدن وفي عصر يرفع عقيرته عاليا ويتناول كلمات المدنية والتقدم والرقي كأنها من صنع يديه ليرشقها في وجه التاريخ والتاريخ المسكين يقول نعم هذا عصر كل ما هو خير للانسان ، عصر تنتصر فيه الآلة على الانسان ، فيصبح لها عبدا اسيرا بعد ان كان سيدا بيده الامر والنهي ..

والى هذا التجاوب والى هذه المشاركة الوجدانية الحميمة اشار شقيق لوركا فرنسيسكو حين قال : « والقيمة الاخيرة لمسرح فردريكو ، القيمة التي تسمه بميسمها الخاص ، هي موقف المؤلف الرئيس الذي يحب ان يحيا ، اعني أن يتعذب ويتمتع بمسيـــرة الحياة بصفتها دراماكونية لا معدى منها (1) . »

والمجتمع الاسباني المؤمن بالقدر وبحتمية المسار التاريخي ، مجتمع اندغم فيه لوركا وامتزج به حتى انه اصبح ــ بتطوره الادبي الاخير ــ رمزا يمثله احسن التمثيل واجمله ، وادعاه الى التعمق وسبر الاغوار ، ويرفع القناع عن كل ما يحتويه هذا المجتمع من نتن وبشاعة وفساد ويعري ذلك بأجمعه تعرية عارمة خشنة بعض الشيء .

مسرحيــة الزفاف الدامي

وشخوص لوركا ، وخاصة في مآسيه الثلاث الرائعة ، شخوص نسوية ، ففي « الزفاف الدامي » تتناوب على البطولة كل من الام والعروس ، تدفع الاولى غريزة الامومة التي عرفت الترمل والثكل وتدفع الثانية قوة الحب الجارفة التي لا تعرف حدودا ولا سدودا ، الحب الاحمق ، النزق الذي يتطاول على قدسية الامومة فيرفسهـا ويدوسها ويسحقها سحقا ، لا لشيء الا لان المراة بصفتها زوجة قد اجبرت على اختيار من لا يروقها ، فهي حارة ملتهبة ، كل نقطة من دمها بركان فوار بالحمم والسيول النارية وهو : انسان اعتيادي ، رجل كالرجال ، فلاح يمشي في الاسواق ويسقي المزروعات ويربي الماشية ، ويأتي الى البيت تعبا ، منكسر الظهر ، واهن القوى ، فكيف لمثل هذا الرجل ان يقترن بذلك اللهيب العاصف ؟

الزوجة المصون ، في ليلة زفافها ، والناس في هرج ومرج احتفاء بهذه الذكرى العطرة ، والام في فرح غامر ، ولكن كل ذلك لا شيء أمام عاطفة العروس التي كانت تحب رجلا آخر هو ليوناردو ، الا ان هذا قد تزوج ، وبات أبا لولد ، لكن الحب بينها وبينه ظل ساعيا بالشر ، حتى وفي هذه الليلة بالذات . لا بد اذن من مؤامرة تلطخ هذه الليلة بالدم القاني ، ولا بد للمأساة ان تنتصر على قلب الأم بالسكاكين التي لعن النذل الذي اخترعها .. وقبل ان تأزف الآزفة ، وتفعل الاقدار فعلها تتذكر الام ثكلها وترملها وما فعلته المسدسات والسكاكين في ابنها وزوجها فتقول مخاطبة ابنها الذي هو على وشك الوقوع في هوة المصير الذي وقع فيه أبوه وأخوه : « من يستطيع ان يعيد الي أباك وأخاك ؟ واذن هناك السجن . ماذا يعنون بالسجن ؟. هناك يأكلون ويدخنون ويعزفون . وموتاي تخنقهم الاعشاب الضارة ، صامتون يتحولون الى تراب » .

الأم لا تملك الا وحيدها ، ووحيدها في عرسه اليتيم ، والعروس، هي يد القدر الذي يريد ان يلطم وجه الأم المعتاد على اللطمات .. والفرحة قصيرة ، قصيرة جدا ، لقاء واحد بين العريس والعروس ، لقاء بارد كل البرودة ، العروس تكظم شيئا في دخيلتها شيئا مرعبا

(1) فرنسيسكو لوركا (في مقدمته للمآسي الثلاث) .

مخيفا ، والعريس ساذج ، فلاح بسيط كيانه شفاف لا يخبىء شيئا لانه لا يستطيع ان يفعل ذلك . أما هي بنت الملاك الصغير ، فستستغل هذه السذاجة بكلمات من هنا وهنـاك ، لتداور وتناور ، وتستغل الفرصة السانحة حتى اذا آتتها هربت من أحد الابواب ، بعد أن تكون قد دبرت الامر مع عشيقها ليوناردو ..

ها هي الزوجة تقدم آيات عفتها في ليلة الزفاف بفرارها مع عشيقها ، فيا للعار . ماذا يمكن ان يقال للعريس ، والالسنة السنة لهيب في القرية ، فرت العروس هذه واقعة حية لا يشوبها غبار ولا خلاف ، الكل على علم بذلك الجار القريب والبعيد واكليل الزواج الطاهر ، اكليل الرباط المقدس يتوج راسها . فاذا تقول الأم لابنها المنكوب تدفعه للحاق بالهارب والهاربة ليقتل الاثنين معا ؟ ان لسانها لينعقد ، وقلبها ليرتجف هلعا ، ونفسها لتميد بها يمنة ويسرة . يد الاقدار ، تتطاول على الأمهات كثيرا ويكون هذا التطاول شنيعا مريعا ، لانه يمتد الان بقسوة الى قلب الأم لينتزع منها وحيدها .. الشرف يدفعها لترضخ للاقدار ، وغريزة الأمومة ، غريزة المحافظة على السلالة الانسانية تدفعها للرفض والرفض العنيف فهي تقول : « لا لا . ثم تقول نعم نعم » .. واذا بالابن يندفع كالسهم الرائش الى الصيد الدسم ، واذا به يطير بفرسه ، الى حيث رمسه ... فتفعل السكين فعلتها الاثيمة ويتجندل ليوناردو والعريس ، وتعود الزوجة الهاربة لتلقى أم العريس وهي تحاور احدى الجارات وتقول الاخيرة : « ألم تعرفيها ؟ » فترد عليها الام : « انا لا اريد ان اعرفها .. والا لغرزت اسناني في رقبتها . » ...

العروس تعول وتولول وتنوح ، والأم ساكتة هادئة اليس يعني ذلك ان الهدوء الذي يلفها يحول بينها وبين فهم نفسهـا . ها ان العروس تضع نفسها بين يدي حماتها ، فلتقتلها اذا شاءت ولتأخذوها معهم ، انها الى احدهم لعطشى ، ولما يبل لظاها وتنقع غلتها . الا ان الأم تتكرم عليها بالابقاء على حياتها . وتتساءل لماذا فعلت ما فعلت فتجيبها الكنة ولهيب يتماوج في ثنايا كلماتها : « .. لقد فررت مع الاخر .. نعم فررت . ولو كنت في مكاني لفعلت ما فعلت . كنت امراة تحرقها الرغبة ملأى بالجراح في الداخل والخارج . كان ابنك قدري ، ولكن ذراع الاخر سحبتني كما يسحب البحر (شيئا من الشاطىء) كان لا بد ان يسحبني دائما ، دائما ـ حتى لو كنت امراة عجوزا وكان كل اصفادك متمسكين بشعري ! »

الرغبة الجامحة تتحدث بصراحة والعاطفة الهائجة تتبختر بهذه الصفاقة ، والانثى المنطلقة من القيود تتبدى على حقيقتها ، فيركوب راسها واندفاعها ، ولا مبالاتها ، وطغيان الشهوة العارمة على ذاتها ، بشكل فيضان فظيع لا يعرف حدود الضفاف الطبيعيـة ولا سدود التقاليد الوضعية وقد جرفت العاصفة الهدارة بكل هذه العراقيل فتحول الفيضان الى طوفان .

اما الأم فما تقدر الا ان تقول وقد سحقها الاسى سحقا : « لا لوم عليها ولا تثريب ولا علي ! من هي اذن ؟ هي امراة رشيقة كسول ، أصابها الارق فرمت اكليل زهر البرتقال وراحت تبحث عن قطعةفراش دافئة لرجل اخر . »

ها هي الكلمات الساخرات تتلبد غيوما لتمطر رجوما على الخائنة التي تقف بطولها أمام فاجعة الأم ، وهي تتلوى والصديد ملء قلبها والدم ملء فيها ، انها الزوجة الغادرة التي تحس بما فعلت وتدرك ما جنت يداها ، والا لما قالت : « اثأري مني . انا هنا ، انظري ما اشد نعومة رقبتي ، ان ذاك سيكون اسهل من اقتطاف زهرة داليا في حديقتك » . وهي لا تكتفي بذلك بل تشير الى موضع العفة من جسدها وتقول : « اما ذاك فلا ، فهو طاهر، طاهر طهارة طفلةوليدة. » وتمضي في التوكيد على طهارتها بالحاح ... لكن عبثا ما تفعل !.

واذا كان هذا القول حقا ، وحرارة الكلام يثبت ذلك ، فلماذا الهرب ولماذا الخيانة والليلة ليلة عرس ، ليلة واحدة فقط في حياة الانسان بأكملها ؟ ها هي النزوة الطارئة تنطلق ، لتعيدنا تأريخا قديما من حب قديم ، لتلطم الاقدار وتقول لها ، ها أنذا امراة ضعيفة ، مقيدة بالتقاليد والاعراف والاخلاق . ولكنني ـ مع ذلك ـ قادرة ان أهز اركانك لحظة واحدة وانحدر الى الهوة متوارية عن الانظار . والمأساة في أساس هذه النزوة ، انها التماعة فيها وميض من المشاركة الوجدانية وفيها استنفار لطاقة الاقدار على انزال الضربات ومن ثم استطرد لاستسلام من بنات البشر لهذه الضربات في سمفونية درامية تتسامى ذراها بأسلوب قريب الى القلوب ، أثير على النفوس ، شفاف ، بديع ، خفيف الظل .

ولوركا في كل ذلك فنان اصيل يمثل اسبانيا تمثيلا رائعـا ويجسدها رمزا ودلالة ووحيا واصالة وقدرة على الايصال المباشر وغير المباشر . ومن هناتجتمع فيه الواقعية والدراميا اجتماعا لاانفصام لعراه ، ويمتزج الشعر في مسرحه امتزاجا عضويا فيتغلغل في كل خلية من خلاياه .

ومن دلائل رمزيته انك في هذه المسرحية لا تجد اسما غير اسم ليوناردو اما الشخوص الاخرون فرموز واضحة .. ومن خلال ليوناردو نتحسس بافاعيل الاقدار وندرك الصدام بينه وبين هذه الاقدار التي تنزل الى الساحة لتصارع عشيقته في ليلة عرسها .. فيكون ليوناردو اداة تنفيذ لهذه الاقدار وتكون العشيقة الزوجة الخائنة ضحيتهـا السهلة ..

هذا هو مجرى الاحداث فكما اننا كلنا من الارض ، فللارض من دمنا نصيب .. والذنب ليس ذنبا انما هو ذنب الارض والدم الذي يرى النور تشربه الارض كما تشرب المياه البوادي البور ...

وتنصب المأساة على النسوة على درجات متفاوتات .. فالام تفقد زوجها وابنها البكر ، وها هي تثكل بابنها الوحيد الباقي على قيد الحياة وتفقد الزوجة عشيقها وزوجها ، وتفقد زوجة ليوناردو زوجها أبا طفلها الوحيد .. ومن ثم نجد ان حلقة المأساة تطوق وجود الأم تطويقا كاملا ، فتحرمها من اي بادرة امل ، بل هي تقضي على كل معلم من معالم الامومة ، في هذه المرأة الرفيعة اللطيفة التي تنجب الابطال ليموتوا شهداء الشرف والكرامة .. وتبقى هي وحيدة في شرنقة من عزلة قاتلة . ها ان آمال الامومة تنهار وتندك ، وتتبدد في النجيع القاني . وهنا تتذكر الأم السكين فتقول مخاطبة الجارات : « بسكين صغيرة . في اليوم الموعود ، بين الثانية والثالثة . قتل رجلان بعضهما بعضا في سبيل الحب .. بسكين . بسكين صغيرة ، بالكاد تملأ الكف . لكنها تنحدر نظيفة في الجسد الذاهل ، وتقف في موضع فيه يرتجف جذر صراخ اسود مختنق » . وتأخذ السكين سهمها ، وبهذه الخاتمة الرائعة يختتم لوركا مسرحيته ، جامعا بين التقاليد الشعبية الاسبانية من نخوة ورجولة وشرف وبين الفولكلور جمعا فيه خلاصة درامية مكثفة مصدرها ـ فضلا عن هذين العاملين المتكاملين ـ انسانية واسعة الآفاق والآماد ، عميقة الجذور ، سامية المبادىء ، في حلاوة حنان ، وصفاء طوية ، وجمال أسلوب ، وجلال قصد ... الامر الذي يجعل هذه المسرحية ذروة سامقة من ذرى المسرح الغربي الحديث ...

مسرحيـة يرمـا

اما مسرحية (يرما) فهي مسرحية الجدب الذي لا يروى لدى المرأة التي تهفو الى وليد ينقذها من عار العقم ، العار الذي ينهش ويمزق ويبعثر وحدة النفس وانسجامها ، فلماذا يجب ان تكون يرما بغير ولد ؟ ولماذا ينبغي ان تترك في عز شبابها لا عمل لها غير ملاعبة الطيور الصغار ؟!

انها تريد المشورة من المرأة العجوز الاولى ، ولو كان في هذه

المشورة ابر تبسمل عينيها وتفقأها .. انها تريد ان تكون اما ، فمـا السبيل الى ذلك ؟

ان خوان الذي تزوجته مكرهة ، بامر من والدها الذي فرضه عليها ، هذا الرجل رجل لا يقدح له زناد مع امراة طافحة الانوثة ، محرومة الولد ، واذا هي قد رضيت بما قدر لها ، فلأنها تريد ان تنتفخ بطنها بمن يحييها من موت محقق ، ومن اجل هذا المخلوق العزيز المرتجى ، اعطت جسدها لزوجها واستمرت في العطاء والبذل.. وهذا النوع من العطاء لا بد ان يكون مجدبا لان الحب الجذاب منتف فيه ، بعيد عن ساحته ! ولما وجهت يرما بهذه الحقيقة انتفضت وقالت : « كلا ، لست مجدبة ، لاني ملأى بالمقت . » هذا ما هي عليه ، بعد سنتين وعشرين يوما والجدب يطوقها والعار يهزأ بهـا ويمزقها ، والجيرة والاقارب يتساءلون ويلحون في التساؤل والتغامز ويقولون : « يرما ، مسكينة ، يرما » لن تكون بطنها مهدا لجنين يتحرك ، ولا رحمها نسغا لمخلوق حي يتململ .. الفراغ ، الجدب ، العدم هذه هي الامور التي تتقلب يرما على اشواكها ، فتئن وتتحسر وتتقطع انفاسها وتعوي وتصرخ ولكن من غير جدوى ..

انها كانت تنتظر الوليد بشوق عارم ، بلهفة لاهبة ، بترقب خائف كانت تقول وهي تخاطب وليدها الوهمي : « من اين تأتي ، حبي ، طفلي ؟ ومن جبال الثلج الجامد ، ماذا تحتاج حبيبـي ، سكري ، طفلي ؟ (الدفء المنسوج في ردائك .-) .. متى ، يا ولدي ، متى يا ولدي ستأتي ؟ »

وتظل هذه الكلمات تنتظر جوابا ويطول الامد ، والجواب بعيد في الافق لا يطل عليها ولا يمل المكوث حيث هو ، فتجتاحهـا الاحزان والكروب والتعاسة ولما تسأل : أهي تعيسة ؟ تجيب : « أنا لست دائما كذلك ... ولكن لي من الاسباب ما يبرر تعاستي . » هذا كان جوابها لسؤال فكتور الذي احبها من بعيد فراح يتساءل عن وضعها ، عله يتدارك من امرها شيئا يمكن تداركه .. ويمضي فكتور في تساؤله فيقول : « وزوجك أتعس منك . » فتجيبه : « نعم . هو كذلك . هذه هي طبيعته . فهو جاف . » فكيف يراد لهذا الجدب ان يتقلص وهو والجفاف صنوان لا يفترقان .

وتستشري الاشاعات والاقوال عن يرما وعلاقتها بفكتور فتقول احداها « حين لا تنظر اليه ــ حين تكون وحيدة . وحين لا يكون في قبالتها ــ تحمل صورته ــ في عينيها . » وتقول الثانية : « زوجها يمثل دور رجل اطرش » . « واأسفي على الزوجة العقيم ، واأسفي على التي تحمل اكياس الرمل في ثدييها . » هذا ما تقوله احدى النسوة من الجيرة ، وهذا ما يقوله واقع الحال . وتمضي سنون خمس وينسى الزوج كل شيء غير عمله ومشاكله ومشاغله .. وتظل يرما تتذكـر ويزداد التذكر ايلاما وقساوة . فتقول يرما ذات مرة متأثرة مخاطبة زوجها . « أما انا فلست انت . الرجال يستطيعون ان يحصلوا على اشياء اخر من الحياة . لكن النساء ليس لهن غير اطفالهن والعناية باطفالهن . »

ها هي يرما تنطح جدارا من الحجر برأسها ، وها هي تعترف : « نعم . حجرا . لكن من العار ان يكون حجرا . كان عليه ان يكون سلة من الازهار والروائح العبقة . »

زوجها الواقعي يريدها ان تستسلم للاقدار وتخضع لها لكنهـا ترفض ذلك الاستسلام بشدة وتقول : « لم آت الى هذه الجدران الاربعة لاستسلم واخضع ... » وحين يقول زوجها « وماذا ستفعلين اذن ؟ » تجيبه والشرر يتطاير من عينيها ومن كل ذرة من وجودها : « أريد ان أشرب الماء ولا ماء ولا قدح . أريد أن أرقى الجبل وليس لي قدمان . »

« أواه يا للثديين العمياوين تحت ملابسي ... أواه يا لألم الدم الحبيس الذي يسمر الزنابير في قعر المخ . لكن ، يا سكري ، يا حبيبي ، يا طفلي ، ينبغي ان تأتي . فالماء يعطينا الملح والارض والفاكهة ، وارحامنا تحتضن الاجنة اللدنة ، تماما كالغيمة تكون عذبة بالمطر . »

ها هو العذاب يقطع النياط ، واليأس يحرق النفس ، وها هو الامل والحنان والثقة العمياء في المستقبل ، كل ذلك يجتمع في كلمات يرما هذه ليضيف الى حزنها حزنا والى املها العنيد املا .

انها تجد نفسها في اذى وحقارة لا تحتملان ، ترى القمح ينضج والينابيع لا تنقطع عن العطاء الثر ، والاغنام تحمل المئات من الحملان، وحتى اناث الكلاب تحمل الجراء ، وهي وحدها العقيم التي تطمع في نسمة من هذه النسمات الكثار لتتحرك في رحمها فلا تجد غير الفراغ العاتي الذي يعوي عواء الذئاب ! كيف لها ان تحتضن نسمة الحياة الجديدة ، وزوجها لا يقدم لها غير كسرة الخبز وملاذ المسكـن وغير التوافه من مشاكل الحقل والمزرعة والبستان .

وتضطر يرما الى اللجوء الى الساحرة دولوريس وعزائمها ، فتطيب الاخيرة خاطرها : « أؤكد لك انك ستوهبين طفلا » . وهنا تعود اليها ثقتها بنفسها فتقول : « ساوهب طفلا . فلا بد من ذلك ، والا فانني لا افهم العالم واحيانا حين اشعر بأني لن لن . تنبثق موجة من النار من قدمي في كل وجودي، فيبدو لي كل شيء فارغا كل الناس السابلة والمواشي والاحجار ، كلها تبدو وكأنها مجبولة من قطن.»

انها لن تعترف بالعالم ، بالكون ، بالوجود كله ، اذا هي لن تراه متجسدا في قاع رحمها ، والا فالعطش اللاهب يلفهـا في اعصاره الرهيب ، بعيدا عن الحرية ، في قيود الفراغ ، في الوجود السخيف الابتر .. ان التي خلقت لكي تكون اما ظلت مجرد فتاة بائسة ، يائسة .. تطاردها رياح الفناء فتدفع بها من هاوية الى هاوية ، بجنون وصخب وعربدة ...

يرما تريد ان تتطلع الى وجود حقيقي ، الى وجود متصل بعضه ببعض في مسلسلة لا اول لها ولا اخر ، ويشاء الحظ ان يجعلها بنت الضيم ، بنت العقم .. ذلك الهواء الاصفر الذي يبتلع صلة الوصل من السلالة الانسانية متمثلة في يرما ، بصلافة وغباء وبلاهة .

وتشتد الظروف حنقا على يرما ، فتتهم بعلاقـة غير نظيفة بفكتور ، ويرما من هذه العلاقة براء ، وتتوسع الاشاعة حتى تصل الى اذن زوجها ، وسط ضجيج عارم ولغط شديد من الرائح والغادي من سوية الناس وسوادهم ..

وينقل الزوج الخبر الى اذنيها وعندئذ تستشيط وتدعر وتثور قائلة ، « اعمل ما تشاء بي ، فانا زوجتك . ولكن حذار من ان تضع اسم رجل في صدري ! »

وأخيرا ، وبعد ان عزت عليها اسباب الارض تلتجيء يرما الى اسباب السماء فتلوذ باحد الاديرة المعروفة باستجابة الدعاء ، وهناك تصفعها عجوز حين تعرف علتها بقولها : « ... اذن انت عاقر كاشواك في حقل جاف » . فما كان من يرما الا ان قالت : « عاقر ، نعم اعرف ذلك .. هذه هي المرة الاولى التي اسمع فيها هذه الكلمة تقال لي وجها لوجه ، وللمرة الاولى أعرف انها هي الحقيقة » . وتذهب العجوز لشأنها مخلفة الحسرة الاليمة ، الخنجر المسموم يخترم جسدها ونفسها وروحها ، وفي هذه الفورة بل الثورة ، يلقاها زوجها بهذه الكلمات : « هذه هي المرة الاخيرة التي اصطبر فيها على رثائك المستمر على أشياء مظلمة ، خارجة عن الحياة ، اشياء في الهواء . » ويستطرد بصلافة منقطعة النظير : « .. أشياء لا تهمني ، اسمعت ذلك . »

الدير لا يستجيب والعجوز تقذف قنبلتها وتمضي ويجيء الان زوجها الامرد ، ليقول قولته هذه ، والايام تتعاقب سراعا ، كل هذه الامور تنعقد في نفس يرما رياحا كثيفة ، تنتظر ساعة الانفجار بين حين وحين واذا بالعاصفة تتجمع وتتحفز ، واذا بالمرأة العاصفة تأخذ المبادرة بيديها واذا بشجرة العقم تقتلع ، كما تقتلع الاعشاب الضارة ، وللمرة الاولى تطبق يدا يرما على عنق زوجها الزنيم فينتفض بين يديها كعصفور صغير بين يدي طفل عابث شرير .. وتنقطع النسمة التي قطعت نسمات !

بغداد — يوسف عبد المسيح ثروة

المجنون

محمد العدناني

صيدا ـ لبنان

ضاحك الآهات ، غضبان ... دائب في السعي ، وسنان
هادىء الاعصاب ، مضطرب ... ساكن ، والصدر بركان
جائع من غير مسغبة ... ظامىء ، والجوف ريان
صامت ، لكن مقوله ... مرهف الالفاظ ، حيران
يشتكي في سمعه صمما ... مطبقا ، والوجه آذان
تلتقي في الثغر بسمته ... بالاسى ، والدمع هتان
شاعر ، لكن قصائده ... ما لها كالشعر أوزان
عمره يقضيه في حلم ... صاخب ، والطرف يقظان
ليس يصحو قبل موتته ... انه ـ ما عاش ـ سكران
فكأن الراح بغيته ... وهو ـ قبل الرشف ـ نشوان
لا يرى في العالمين فتى ... غيره باللب يزدان
فهو ، دون الناس ، رب حجا ... ذخره علم ، وعرفان
والورى في رأيه سلبت ... عقلهم سلمى ، وبوران
ما دروا ان الكعاب ثوى ... في صباها الغض شيطان
فهي مثل الظل ان رضيت ... واذا ثارت ، فثعبان
ولها في ريقها عسل ... رب ريق فيه ذيفان
ونراها نحن جنتنا ... فالجنى ورد ، ورمان
وافترار الثغر يأسرنا ... منه حول الدر مرجان
ويضوع الطيب ان خطرت ... ويهز الخافق البان
بين جنبيها هفا ملك ... كله خير واحسان
ليت شعري ! اينا خطل ... رأيه ، ينفيه بطلان
كم فتى ذي ثروة لسن ... قوله زور ، وبهتان
ان هذى ، قالوا : فتى ثقة ... أو لفا ، فالفذ سحبان
أو كبا ، طارت به صعدا ... ثروة يسمو بها الشان
ترتقي الآفاق مصعرة ... خدها ، والعرش كيوان
ليته تعرى حقيقته ... فتشين النفس ادران
ويغض الطرف مدكرا ... أنه في القدر انسان
رب مجنون اذا ومضت ... من نهاه الرث اركان
ارسل الاقوال محكمة ... نسجها حق ، وايمان
فهي مثل الشمس مشرقة ... وهي مثل الزهر ألوان
قلما جادت بتوأمها ... في مجال الفكر اذهان
حكم غراء ، راجحة ... ما لها في العقل ميزان
ليتني احبى الجنون لكي ... لا تذيل الدمع اجفان
حيثما يممت ، تحدق بي ... اتة حرى ، واحزان
فهنا ثكلى تذوب اسى ... دأبها لطم ، وارنان
فاذا ما الدمع اعوزها ... مده للذرف شريان
صوحت آمالها ، وغدت ... ما لها في الناس معوان
هيكل يمشي تجلله ... ـ وهو نهب البؤس ـ اكفان
صفحة سوداء قد كتبت ... ولها الارزاء عنوان
وهنا انقاض ارملة ... دمعها كالوبل هتان
حولها اطفالها انطرحوا ، ... كلهم ـ يا عرب ـ جوعان
وهمو لولا الانين لما ... ظنهم احياء انسان
حز في نفسي شقاؤهم ... وورت في الصدر نيران
فحبست الدمع ، وانفجرت ... زفرة حمراء ، مرنان
هالني ، والبؤس يحدق بي ... انني باللب مزدان
فتمنيت الجنون لكي ... لا اعي ، فالخبل احسان

بين النقد الادبي والبلاغة

بقلم عدنان بن ذريل

* * *

في عام ١٩٢٦ أوكل الى الاستاذ احمد امين تدريس البلاغة ، في الجامعة المصرية ، كلية الآداب ، فاقبل على كتبها العربية ، والغربية يقيم المقارنات بينها .. ثم مال الى دراسة النقد الادبي على الكتب العربية ، والغربية ايضا ، خاصة كتب النقد الادبي الانجليزية ، فارتأى ان يدرس النقد الادبي في كلية الآداب ، على ان يطبق على الادب العربي ، فكان تدريسه لذلك ، على حد قوله ، اول درس في النقد الادبي ، في مصر ، على النمط الحديث.. (النقد الادبي ، ط ٣ ، ص ج و د) ..

وقد نشرت محاضراته في ذلك ، بعد مدة طويلة ، اي عام ١٩٥٢ ، تحت عنوان « النقد الادبي » وهو في جزئين ، الا ان تضاعيفها بلاغية .. وهي محاضرات غفلة من المراجع ، تجمع بين التلخيص للكتب الغربية ، الانجليزية في النقد الادبي ، وبين تطبيق الملخص من المعارف ، والمناهج ، والاذواق على الادب العربي القديم او الحديث ..

وايا كانت درجة نجاح هذه المحاولة ، فانها ، حقا ، فتح جديد .. كما ان الحديث فيها عن النوعين الادبيين الحديثين ، القصة ، والمسرحية ، يعتبر هو ايضا فتحا جديدا في دراسة الانواع الادبية ، التي تعتبر اليو ، الى حد ما ، من البحث البلاغي الحديث ..

والنقاد مجمعون تقريبا ، في نظر احمد امين على ان الادب يتكون من عناصر اربعة ، هي : العاطفة ، والمعنى ، والاسلوب ، والخيال .. وغاية الامر ان بعض الانواع الادبية يحتاج الى كمية اكبر من بعض هذه العناصر ، مما يحتاجه نوع اخر ، فالشعر مثلا يحتاج الى مقدار من الخيال ، اكثر مما تحتاج اليه الحكم ، والحكم تحتاج الى مقدار من المعاني اكثر مما تحتاجه من الخيال ، وهكذا ..

العاطفة : العاطفة عنصر هام في الادب ، وهي التي تكسب الادب صفة الخلود ، ان العلم الذي قرر زمن الالياذة قد درس ، كما درس العلم الذي قرر ايام المتنبي ، ثم بقيت الالياذة ، وبقي شعر المتنبي ..

ولذلك حببت الى النفوس اعادة قراءة الشعر ، من اي عصر كان ، في حين تمل ، عادة ، اعادة قراءة الكتاب العلمي ، لان الشعر مرتبط بالعاطفة ، يصدر عنها ، يصورها ، او يستثيرها لدى السامعين ، بينما الكتاب العلمي مرتبط بالعقل ، ويحتاج الى تهيؤ علمي ..

والعاطفة من جهة ثانية ، أوسع مجالا لتوضيح الشخصية .. واذا سلمنا ان ما كان مصدره العواطف هو ادب ، فكذلك صحيح ان ما لا يصدر عن عاطفة ، ولا يثير العاطفة ، لا يسمى ادبا .. فالتاريخ اذا صدر عن عاطفة ، واثار عاطفة يسمى ادبا ، والا كان علما ، ومن هنا الفرق بين العلم ، والادب ..

ومع ذلك ، لا بد من مزج الحقائق العلمية بالعواطف والخيال ، في كل الآثار الفنية .. وتفترق الموسيقى عن الادب ، بأنها تخاطب العاطفة ، وتثيرها من غير اعتماد على حقائق علمية .. فالموسيقى اوضح لغة للعاطفة لا يشاركها في ذلك الا الضحك او البكاء ، او الصراخ ، وما الى ذلك من تعبيرات عضوية وظيفية ..

بينما تضع الفنون الجميلة الاخرى ، كالنقش ، والتصوير امامنا موضوعا جميلا ، حتى الشعر لا بد ان يكون ذا معنى ، وتكون فيه حقائق ، ومادة عقلية تعتمد عليها المشاعر .. وبدون هذه الحقائق لا يستطيع الادب ان يثير العواطف ..

ولكن كيف يقاس عنصر العاطفة في الادب ؟. عنصر العاطفة في الادب يقدر بصحتها ، اي صدقها ، واعتدالها ، اي اتزانها ، وقوتها اي كثافتها ، وحيويتها ، اي تأججها ..

كما يقاس باستمرارها ، اي ديمومتها ، وثباتها ، اي اطرادها ، وان تكون العواطف خصبة .. وتلك سمة الفحول من الادباء ، الواسعي الخبرة بالحياة ..

وتقدر العاطفة الادبية ايضا بنوعها ، ورفعتها .. حقا ، لقد اثيرت مسألة الاخلاق في موضوع الادب للادب ، والفن للفن ، ولكن الفرض الاخلاقي للادب ، هو ان يرفع مستوى العواطف ، ولا يدنيها ، وان يتجرد بنزاهة لجمهوره ، فلا يخدع الضمير ، ولا يضعف الارداة ..

الخيال : الخيال ايضا عنصر هام في الادب ، وبواسطته يثير الادب فينا العواطف المختلفة .. وتعريف الخيال ، على حد تعبيره ، عسير ، من حيث ان اللفظة التي تطلق عليه تستعمل في انواع مختلفة من العمليات العقلية ، على حد تعبيره ايضا .. (ص ٣٩) .

فاذا تصورت في ذهني صورة حيوان رأسه رأس طائر ، وجسمه جسم كلب ، فهذا يسمى خيالا ، واذا تصورت قطعة ارض فيها تلال ، حول واد يجري فيه نهر ، على حافتيه مزارع ، ترعى فيها الابل ، فهذا العمل ، ان كان استذكارا ، او لم يكن كذلك ، يسمى خيالا ..

وهناك الخيال الخالق ، او المبدع ، مثل الذي يخلق الروائي شخصياته التي يحللها ، او يسرد عنها .. هذا

العمل ليس من عمل العقل المفكر ، في رأيه ، بل من عمل الخيال الخالق .. والصورة الجديدة التي يخلقها الخيال الروائي مثلا ، اذا كانت منافية للحياة المعقولة سميت وهما ، فالوهم خيال يسبح في الفضاء ، لا يقيده عقل..

وهناك الخيال المؤلف ، الذي يؤلف بين مناظر مختلفة ، يقرن بينها ، ويرشح صورها .. وهناك الخيال الموحي ، او الموعز ، وهو بدل ان يقرن صورة بصورة ، يضفي على الصورة امامه صفات ، ومعاني روحية تؤثر في النفس .. وهو الذي يتغلغل في اسرار الطبيعة ، والاشياء، او يستقصي الاوصاف الاخلاقية للشخصيات..

والخيال ذو قيمة كبيرة في الادب ، ان لم يكن اقوم الملكات الادبية ، تحتاج اليه جميع ضروب الادب .. وكلما رقي الموضوع في سلم الادب ، كانت حاجته الى الخيال اوضح ، فالشعر ، والقصص ، وكذلك التاريخ ، بحاجة الى الخيال ..

والشعر العربي ، في رأيه ، يرمى عادة بالضعف في الخيال ، اذا قيس بالآداب الاخرى ، لقلة ما فيه من قصص ، واساطير ..

المعاني : ولها قيمة كبرى في الادب ، وتكون لها قيمة اكبر في بعض انواع الادب ، كالكتب الادبية ، وكتب النقد ، والحكم ، والامثال .. ذلك ان الغرض الاول ، في هذه الكتب ليس اللذة ، وانما الحقيقة ، فليست اثارة العواطف فيها بالمنزلة الاولى ، وانما المنزلة الاولى فيها للاخبار بالحقائق ، واداء المعنى .. في حين الادب بالمعنى الصحيح ، او على حد تعبيره الادب الصرف ، مثل القصص ، والشعر القصد منه اثارة العواطف ، بينما مراعاة المعاني ، والحقائق امر ثانوي فيه ..

الا ان العواطف في الحقيقة ، تكون صحيحةسليمة، اذا كانت مؤسسة على اساس صحيح هو الحقائق ، والشعر نفسه يجب ان يقاس ايضا ، والى درجةكبيرة ، بما فيه من معان ترتكز عليها العواطف ، ويهيج بها عواطف الناس .. وكبار الشعراء قوم صحت حكمتهم ، واتسعت تجاربهم في الحياة ..

وليست وظيفة الادب ، ان يعلم الحقائق ، وانما وظيفته ان ينتفع بالحقائق المعروضة ، ولكن الى اي حد يشترط في هذه المعاني ان تكون حقيقة ، صحيحة ؟! لا تقاس المعاني في الشعر ، بصحتها من الناحية العلمية او الفلسفية ، اما تصوير الادب للحياة الواقعية، فموضوع اختلفت فيه الآراء الى مذهبين كبيرين في الاساس ، مذهب الواقع ، ومذهب الكمال ، يمثل الاول الحياة العادية ، ويمثل الآخر الحياة في نزوع الناس الى غايات لها خاصة ..

نظم الكلام : على حد تعبيره ، وهو العنصر الرابع في الادب ، اذ لا يمكن اثارة العواطف بتسميتها ، وتحليلها، ولا بالكلام حولها ، ولا التفكير فيها في قول مجرد ، وانما يكون ذلك عن طريق الحديث في موضوع يثيرها معتمدا الى حد ما على الخيال ، يدعمه شيء من التحيز ، للكلام ، الذي يتناسب مع العواطف المقصودة ، او تحيز لنظم الكلام الذي يتناسب مع هذا المقصد ..

ان نظم الكلام اذن ، هو الوسائل الادبية التي يستخدمها الاديب في عرضه للاشياء ، وهي شيء غير تقديم الامور بذاتها .. وغايته منها في الاساس ، اثارة المشاعر .. وهو يعتمد في الاساس وفي البدء ، على اختيار للكلمات ، لا من ناحية معانيها فقط ، بل من ناحيتها الفنية ، بما توحيه من افكار ترتبط بها ، ومن ناحية وقعها الموسيقي من جهة ثانية ، وان اي اختلاف في التعبير ، او في طريقة نظم الكلام ينتج عنه اختلاف في التأثير ..

وتأليف الكلام او نظمه ، كما يقول ، ليس غاية بذاته ، وانما هو وسيلة للتعبير عما لدينا من افكار وآراء ومشاعر .. الا ان له من القوة ما يجعله عنصرا قائما بنفسه .. انه وسيلة من وسائل نقل المعاني ، والمعاني ترقي صورته .. ويقاس النظم بالمقدرة على نقل الفكرة ، والعاطفة نقلا صحيحا صادقا .. والنظم هو التعبير الخارجي عن حال داخلية ، فمتىصدق التعبير الخارجي، وادى شرح الحالة الداخلية ، كان نظما جيدا..

واذن ، ان جمال النظم في اشراك المعاني ، والعواطف في التعبير ، واهم صفات الكتابة الجيدة شيئان متقابلان (١) ، هما القوة والدقة ، وهما يتعاوران على الموضوعات الكبرى من حماسية ، وحربية وعاطفية وغزلية ..

والنظم يحتاج الى مران وتربية .. فيجب على الاديب ، تعلم نظم الكلام نظما جيدا لينقل الى الناس في دقة وقوة، ما يفكر فيه او يشعر به ، وحقا هناكاستعداد طبيعي للنبوغ في الاسلوب ، ولكن هذا الاستعداد مهما قوي لا بد له من مران ، وتثقيف ..

وتبدأ محاولات العلامة الجليل الاستاذ امين الخولي في التجديد البلاغي عام ١٩٢٨ ، اذ كان يدرس الادب والبلاغة في كلية الآداب في الجامعة المصرية . (فن القول ، ص ٧ ، مناهج تجديد ، ص ٩ ، و ٣٢٣) .. ثم لم تنقطع تحقيقاته وانجازاته في هذه المجالات حتى اخر ايامه ..

حقا ، لقد ظل طموح الجامعة المصرية ، كليةالآداب ، وغيرها من الجامعاتالعربية ، وكلياتها في البلاد العربية، وراء حركات التجديد النقدي والبلاغي ، منذ اوائل العقد الثاني من القرن العشرين ، ولكن النتاج الفعلي في تدعيم التأصيل البلاغي ، لم يصل الى مستوى علمي لائق شامل ومقنع ، الا مؤخرا ومع امين الخولي ..

لقد كانت جهود الرائد العربي الكبير طه حسين

منصرفة ، منذ ذلك الحين الى التاريخ الادبي ، مشاكله ، وتطبيقاته نفسها ، واحيانا الى النقد الادبي .. بينما جهود الاستاذ احمد امين اتجهت بالاحرى الى التلخيص عن الغرب ، ثم توفيق الملخص مع المتوارث من تراثنا القديم ، وتطبيق هذه النظرات الجديدة الحديثة ، على الادب العربي ، **قديمه وحديثه ..**

وقد تميزت محاولة سقراط البلاغة (٢) ، العلامة الجليل امين الخولي ، في التأصيل البلاغي بمقارنتها الدقيقة ، وشمولها النير ، وعلى الخصوص ايثارها الذوق ، الذي قرر امين الخولي بواسطته تمصير البلاغة، كما دعم به الاقليمية الادبية عنده على العموم (٣) ..

لنعرض نتائج جهود العلامة الجليل امين الخولي في البلاغة الحديثة .. لقد آثر الاستاذ امين الخولي لبلاغة اليوم مصطلحا حديثا ، هو فن القول ، صيرها ، في جهد وطيد اليه .. يقول العلامة امين الخولي في محاولاته الاولى في التجديد : كانت محاولتي الاولى في سبيل البلاغة ، هي تحقيق فنية البلاغة ، والانتهاء بها الى ان تكون فن القول ، الذي يقوم الى جانب الفنون الاخرى من سمعية او بصرية . (مناهج تجديد ، ص ٣٢٤) ..

ويقول في تبيين صلة الادب ، وعلومه بالبلاغة : ان الادب من الفنون الجميلة ، فهو فن اداته الكلمة، ان الادب هو القول الفني .. والبلاغة هي البحث عن فنية القول ، واذا ما كان الفن هو التعبير عن الاحساس بالجمال ، فالادب هو القول المعبر عن الاحساس بالجمال ، والبلاغة هي البحث في كيف يعبر القول عن هذا الاحساس . (مناهج تجديد ، ص ٣٣١ — ٣٣٢) ..

ويقول في تعريف البلاغة اليوم ، ورسمها : فتكون البلاغة في تعريفنا هي : فنية القول ، وانه بحيث يكون تعبيرا عن احساس القائل بالجمال ، وليست بنا بحاجة في الرسم الى اكثر من ان البلاغة هي فن القول (فن القول ، ص ١٧٨) ..

ويبرر العلامة امين الخولي هذه التسمية الجديدة ، لغة واصطلاحا ومراسا فيقول : وما تحسب في هذه التسمية الجديدة للبلاغة ما يسخط ، او يغضب من لسخطه وزن ، او لغضبه قدر ، وان نقمها جامد ممن يرتدون اكفان الموتى ، فلا علينا من ذلك ، ما دام لهذه التسمية ايحاؤها الدائم ، ولفتها المتصل الى الهدف الجميل المبتغى . (فن القول ، ص ١٧٨ ايضا .) .

ويضيف انها من حيث مدلولاتها اللغوية ، قريبة من المعنى المراد من البلاغة قديما ، وحديثا .. فمادة فن تعني التزيين ، يقال فن الشيء فنا زينه ، كما انها تعني ايضا التنويع مع اشعار بمعنى الحسن ، يقال افتن في الحديث اخذ في فنون ، واساليب حسنة في الكلام ، وهي ما نحن فيه من حسن القول .

بل انها اصطلاحا اقرب الى مجال الكلام، والاساليب من دلالة البلوغ ، والانتهاء .. ناهيك بأثرها التعليمي ، والتلقيني : اذ يصل الطالب بجو الجمال ، والفن ، الذي تمنحه الحياة من نشاطها الكثير ، ويغري هذا الوصل بأساليب الفن ، وطرائقه ، ويبرىء من الخلط في المنهج والتناول ، فتستقر بمعونة ذلك اصول التقنين الذي يراد تحقيقه ، في هذه البلاغة ، على ما عرضنا . (فن القول ، ص ١٧٩) .

المحاولة موفقة ، والاتجاه موفق ، وهما على كل حال ، من صنيع الثقافة العربية المتطورة ، في الفترة العربية الحديثة (٤) .. ان لفن القول اليوم الايحاء الذي للبلاغة ، وله ايضا مدلولها وتلقينها علاوة على ان ثمة اليوم مصطلحات ، مثل فن الكتابة ، وفن التأليف ، وفن الانشاء الادبي ، وفن الانواع الادبية تستهلك في نفس مدلولها ، وتعيش عيشتها في المصطلح البلاغي العربي الحديث (٥) ..

ويمكن اعطاء فكرة صادقة عن الافادة التي افادها البحث المقارن ، ونتائجه المختلفة ، بالوقوف على الخطة التي رسمها العلامة امين الخولي للبلاغة العربية الحديثة ، كما يرتئيها ، اي خطة فن القول .

قسم امين الخولي خطة فن القول الى مبادىء ومقدمات وابحاث ، وهو يقصد من مبادىء هنا معناها الاصطلاحي عند العرب ، اي ما يقدم بين يدي العلم ليعرف به ، بينما يقصد من مقدمات دراسات اخرى تؤيد الدرس المقصود . (فن القول ، ص ٢١٥) .

المبادىء : في التعريف بفن القول ، وصلته بالدراسة الادبية ، والنقد الادبي .. الخ ..

المقدمات : منها مقدمة فنية تبحث في الفن ، حقيقته ، وفي الجمال ، فيم يكون ، وبم يقدر ، والآراء في ذلك قديما ، وحديثا ...

ومقدمة نفسية تبحث في القوى الانسانية المختلفة ، وصلة بعضها ببعض ، وتبحث في الحياة الوجدانية ، مقوماتها ، اغراضها .. الخ .. وما تمد به العمل الفني ، لا سيما الادبي .. الخ ..

الابحاث : ويصفها بأنها لب الدرس ، وصميمه ، (فن القول ، ص ٢١٥) . وتبحث في الكلمة ، لغة

---

(١) — يدرس احمد امين في الكتاب نفسه ، ص ١٠٧ — ١١٦ ، الاسلوب ، وقواعد الاسلوب الجيد ، فيسمي هذه الصفات تارةبعناصر، وتارة بقواعد ، مما يحمل ايضا سمة التلخيص الصريح ، والسريع بالاحرى عن الغرب ، بينما لا يجوز اليوم التهاون في اطلاق مثل هذه المصطلحات دون تحديدها .. (٢) و (٣) — راجع الاديب ، ابريل ١٩٦٧ ، البلاغة عند امين الخولي ، لعدنان بن ذريل .. (٤) و (٥) — لقد وجدت بالفعل شيوع مصطلحي (فن) و (تفنن) وما يدور حولهما ، او مصطلحات اخرى نظرية ، وخاصة ، كفن الكتابة مثلا ، في ما جردته من لغة النقاد ، ودارسي الادب ، منذ مطلع القرن العشرين ، في مصر وسورية ولبنان وغيرها ، يراجع كتابنا : البلاغة ، والدراسة النفسية ، ففيه اشارات متفرقات الى ذلك ..

عود من السفر التائه

كنت بعيدا عنكم
انسانا اضواه السفر الدائب
بحثا عن ابواب الحكمة

في كل الآفاق ضربت، اجتزت الصحراء الى الصحراء
حملقت طويلا في وجه اللاشيء
غازلت الانجم ، راجعت سطور الكهان القدماء
حاولت السير طويلا من دون حذاء !
ولقد كان بعلمي ان الزاد قليل، والعمر قصير
لكن الشوق اللاغب كان يدوي في اعماقي
لكن اين الدرب الى ابواب الحكمة ؟!
ولقد كنت اقول لنفسي :
هبني عرفت الباب ، وصلت
طرقت الباب ، فهل يفتح ؟!

في هذا السفر التائه ـ ان صح التعبير ـ
كنت أعلل نفسي بالاشياء الساطعة الزرقاء
بالازهار العابقة في أركان السر ،
بالخبز الساخن ، بالماء البارد ،
بالفيء الوارف ،
بالفيد العرب الابكار في جنبات النهر ..
بنشيد الطير الصاخب في الافنان .
في جنات الحكمة ..!

لكني ، واأسفاه !
عدت بخفين مثقوبين
وبكوز فارغ .
لكني في هذا السفر التائه
سألت كثيرا نفسي عن اشياء واشياء
وقرأت خطوطا في صفحات الرمل المتحركة الكثبان
ورسمت خطوطا ناعمة فوق جذوع الاشجار
ولقد غنيت كثيرا في وجه الريح العالية الصوت

وانا اذ عدت اليكم
مغتبطا بالتجربة المرة
عدت اليكم
كالنهر الراكض لاقى بحره
كالطير التائه لاقى عشه
كالطفل الضائع لاقى اهله
عذرا ، عذرا ..

دمشق — صباح الدين كريدي

واستعمالا ، ثم الجملة ، والفقرة ، وصور التعبير ، سواء من المعلن ، او المظلل .. واخيرا الفنون الادبية ، والاساليب .. الخ ..

الخطة حقا مبتكرة ، وعلى الخصوص انها لم تكن نتيجة التلخيصات او الترجمات ، او التقول ، وانما جاءت بناء تأصيليا ، يعمل على نتائج ابحاث مقارنة ، متنوعة ، في رحاب البلاغتين العربية والغربية ، موضوعاتهما ، مناهجهما ..

وقد ظل العلامة امين الخولي ، بالفعل ، يؤكد على قيمة بحث الاسلوب اليوم ، يذكر ، في صورة البلاغة عند المحدثين ان : الدرس المختص ببحث الاسلوب ، وتعليم الكتابة الفنية ، يسمى البلاغة ، كما يسمى فن القول . (فن القول ، ص ٤٢) .

وفي تخطيط البلاغة عندهم ، يذكر انها : بحث الكلمة ، وصور البيان ، وفنون القول ، ثم الاساليب ، فاذا البلاغة عندهم بخاصة وبعامة ، كما قيل ، هي درس الاساليب ، او هي علم الاسلوب . (فن القول ، ص ٦٢) .

وفي تحديد باحث فن القول يذكر ان الدرس: يتناول الكلمة ، فالجملة ، فالفقرة ، فالصورة البيانية ، فالقطعة الادبية ، فالاساليب ، ففنون النثر ، والشعر . (فن القول ، ص ٢١٦) .

ويشمل بحث الاساليب في خطة فن القول : الاساليب الفنية في الادب ، وسواه من الفنون ، ودلالتها على شخصية المتفنن ، الاعتبارات النفسية والادبية التي يقوم بها تميز الاسلوب ، الاساليب الادبية من حيث هي طراز في الاخراج ، والعرض تميز عمل الاديب ، مثل الاسلوب الرمزي ، وغيره في عمل ادبي كامل ، مقومات مثل هذا الصنيع ، ومميزاته ، مع الاشارة الى مثل من كل طراز . (فن القول ، ص ٢٢٣) ..

دمشق — عدنان بن ذريل





بقلم خليل ابراهيم القزيع

كنا في الايام الاولى من حزيران .. وكانت الارض مكسوة ببساط اخضر يمتد على مدى البصر .. ونسمات ربيعية منعشة تهب من اقصى الشمال ، تعبق منها رائحة النخيل المنتشرة الى مسافات بعيدة من القرية . وارتفعت اصوات الديكة لتحفز الكسالى على الانسلاخ من ملل امتد عبر الليل ، ثم بدأت الشمس ترسل اول اشعتها فضية تبعث على السعادة ، واتخذ الفلاحون طريقهم الى حقولهم ، هذا يركب حماره واخر يسير خلف ثوره ، بينما تجمعت فئات من الفلاحين وسارت الى الحقول ، كل فئة يجمعها نوع العمل ، وانطلق الفتية والابتسامات تعلو وجوههم الى المدرسة الوحيدة في القرية.. وفي طريقهم كان اولئك يتحدثون عن الزراعة وما يدور في فلكها ، بينما هؤلاء يتحدثون فيما هب ودب في الوقت الذي انشغلت فيه اقدامهم الصغيرة بضرب علب الصفيح الفارغة وتداولها بين اقدامهم ، وكأنهم يريدون ان يصطحبوا معهم الى المدرسة كل هذه العلب المنتشرة في ازقة القرية الطيبة .

كانت الحياة قد بدأت تدب في اوصال القرية بعد ليل هادىء سعيد ، وداعب النعاس جفني رغم تسلل اشعة الشمس الى غرفتي المتواضعة من خلال الشقوق المليئة بها النوافذ الخشبية المحكمة الاغلاق بالرتاج القوي . وتململت ، ثم تدحرجت نظراتي على ارض الغرفة لتستقر على الساعة ذات المنبه، والموضوعة على نضد صغير يشاركها فيه مذياع تراكم عليه الغبار . كان مفروضا الا انام بعد صلاة الفجر ، حتى وان نمت فقد كان مفروضا ان استيقظ في الساعة السابعة صباحا ، حتى اتمكن من الاستعداد للذهاب الى المدرسة في الوقت المناسب ، فها هي عقارب الساعة تلهث تحت الحاح رغبة جنونية للوصول الى التاسعة ، ولا ازال مستلقيا في السرير ، متخدرا تحت تأثير الرغبة في معاودة النوم ، وتطلعت الى السقف لاراقب برص كبير ترابي الشكل يتشبث بالسقف قلقا مضطربا ثم يهدأ فتتحول نظراتي عنه لتتجمد على نسيج عنكبوت لا يلبث ان يخرج منه عنكبوت بدا كريها رغم صغر حجمه ، وكان يمكنني وبكل بساطة ان انظر من خلال شقوق النوافذ الى المرج الاخضر الممتد بعيدا والقابع باطمئنان في احضان القرية وعلى مشارفها ، ولكن نظراتي تابعت العنكبوت في رحلته الرزينة باستمرار ، ولكن المؤسف انه اختفى في شق من هذه الشقوق المنتشرة في هذه الغرفة كأنما لتشهد على عتقها ، ولما لم اجد جدوى من التقلب على السرير الذي بدأ يئن كأنما ليعلن احتجاجه ، تركته ، وانشغلت باعداد فطيرتين والتهمتها بدون تأن او انتظار ، وعركت اذن المذياع لاسكته بعد ان امتدت اليه يدي لتعبث بآذانه على امل سماع ما يفيد ، وتطلعت الى المرآة طويلا قبل ان اخطو خطوة خارج الغرفة ، ونظرت الى الساعة فاذا عقاربها تقترب من العاشرة. وفي الطريق الى المدرسة .. كانت علامات استفهام ترتسم في ذهني ، فماذا سيقول المدير ؟ وهل هناك ما يقال بعد ان استنفذ كل ما لديه من نصائح عن وجوب المحافظة على الواجب واداء الرسالة على افضل وجه، ونتائج الاهمال واللامبالاة . كان دائما يقول:

ـ انت لا تصلح للتدريس .. ان هذه المهنة تحتاج الى الاخلاص اكثر من اي مهنة اخرى ، ولا اعرف كيف يرتاح ضميرك وانت لا تقوم بواجبك .

وبيني وبين نفسي كنت اعترف بانني مخطىء ، فجميع زملائي في العمل تسير اعمالهم طبيعية لا تشوبها شائبة ، ولا يعكر صفوها معكر ، باستثنائي ، فانا مضطر لهذا الاهمال ، وليس امامي الا ان اسير في هذا الطريق رغم وعورته للوصول الى هدفي، فانا مدرس حديث العهد بهذه المهنة ، تخرجت في العام الماضي من معهد المعلمين ، وتعينت للعمل في مدينتي ولكن حركة تنقلات بين المدرسين قد حصلت ، فكنت من نصيب هذه القرية الجميلة او كانت هي من نصيبي ، ولو خطر ببالي انني سأنتقل للعمل بعيدا عن اهلي لما اخترت هذه المهنة وتركتها الى اي مهنة غيرها تضمن بقائي الى جانب اسرتي ، وعندما وصلت الى هذه القرية تعرفت على مدرس اكد لي ان الوسيلة الوحيدة لكي احصل على النقل هي الاهمال والتساهل في اداء الواجب ، وتعجبت ، ولكنه اكد لي جدوى هذا الموقف مستشهدا بالقول المأثور (وداوني بالتي كانت هي الداء) فهذا سيلفت نظر المسؤولين وبالتالي ينظرون في موضوع النقل ، وقد جرب بنفسه هذه الطريقة وسيجني ثمارها قريبا كما يقول ، ومن سخريات القدر ان يتحقق حلمه ، فلم تمض ايام على وجودي في المدرسة في الوقت المناسب ، حتى انقلب الامر الى اهمال صريح يعرفه الجميع .. كان من الممكن ان تسير الامور الى الافضل لولا ذلك المدرس ، فجميع من عرفت من ابناء هذه القرية الطيبة يمكن الاندماج معهم ، فدماثة الاخلاق والتفاهم السليم والود الاخوي ، كل ذلك يسود الجميع هنا ، ولكن ذلك لم يفلح في ازالة الفكرة التي تمكنت كالداء من ذهني . لا بد من الانتقال من هذه القرية ، ولكي يتم النقل لا بد من لفت نظر المسؤولين ، ولكي يتم لفت نظر المسؤولين لا بد من الاهمال ، هذا سخف مؤكد ، ولكن الاسخف منه العيش بعيدا عن الاهل بدون مبرر ، وقد لا يكون منطقيا ان نتصرف بما لا نعتقد بجدواه ، ولكن الظروف احيانا تفرض علينا ذلك ، وان كان ثمة مبرر وجيه يمكن ان نلجأ اليه لاقناع العالم بعدالة مواقفنا فلا شك ان الصمود في حد ذاته يحمل تبريرا جديا ، لا باعتباره موقفا مفروضا ولكن باعتباره حقيقة مسلم بها رافقت ملامسات الموقف قبل وبعد تأزمه حتى آل الى ما آل اليه ، كانت فكرة العيش بعيدا عن الاهل لا تطاق ، وكان المدير يقول :

ـ بامكانك الذهاب كل اسبوع الى المدينة لتقضي هناك اجازة الاسبوع ، فهي ليست بعيدة عن القرية . وكان محقا في قوله ، ولكن ما اريده لم يكن حلا جزئيا للمشكلة ، انني ابحث عن الحل الجذري الكلي لهذه المشكلة ، ومررت وانا في طريقي الى المدرسة بالمخبز الوحيد في القرية ، وكان صاحبه يتجاذب اطراف الحديث مع بعض زبائنه ، فلما لمحني القى علي تحية الصباح بصوت مرتفع تفوح منه رائحة المرح ، ورددت التحية بامتعاض ، ولا شك انني اصبحت موضوع حديث ممتع بين صاحب المخبز وزبائنه . فلا هم لهم غير الثرثرة فيما هب ودب ، ولكن مهلا .. قد يكون لديهم ما يشغلهم عن الحديث في اي موضوع ، فلماذا الظن وان بعض الظن اثم .

كان الطقس جميلا وكانت رائحة الربيع لذيذة ، وبدا الاستعلاء والشموخ ظاهرا على بيوت القرية المكونة من طابق واحد ، لان اساسها المبني باللبن لا يسمح بغير ذلك . ولكن بيتا واحدا استطاع ان يشذ عن هذه القاعدة هو البيت الذي اسكن في غرفة من

هبـاء

سأهتـف حتـى يبحَّ هتـافي — واكتب حتى تضـج القوافـي
ويزأر مـوج البحـار ويطفى — ويعيا لدى راسيات الضفاف
فمـن مقلتـي لهيـب يطـل — وبـين الجـوانح آخر خـاف
سأستعـذب النار بين الضلوع — وأستقطر الوجد حتى الجفاف
وأسعى أشـق عبـاب الظلام — فلن يثنيني بعيـد المطـاف
ففي السعي أنسى ضياعي وأسلو — شحوب الاماني وفوضى الهتاف
عسى ألتقي في غدي غايتي ! — وأجثوا لديها جثـوَّ اعتراف
فيومي وأمسي هبـاء مثـار — ومجدي وحبـي هباء مـواف

دمشق — سلافة العامري

غرفه ، ولعل مرد ذلك الى ان الجد العاثر ربما لصاحبه ، قد راعى عند بنائه مسألة تأجيره الى الوافدين علـى القريـة بدون عائلاتهم ، وقد كان موفقا في اختيار موقعه ، فالغرفة التي اقطن فيها على الاقل تطل على مرج اخضر يبعث في النفس الراحـة في الربيع والكآبة فـي الخريف والفرحـة فـي الشتاء والضيق في الصيف .

اخيرا وصلت الى المدرسة .. وكان مدرس التربية الرياضية يعطي لتلاميذه بعض التمارين في فناء المدرسة ، واتجهت رأسا الى غرفة الادارة للتوقيع في دفتر الحضور والغياب ، وعندما انتبهت الى وجود شخص غريب القيت عليه تحية الصباح باهمال ، ثم وجدت انه من الضروري مصافحته ، وعنـدمـا صافحته شعرت بصغر يدي وهي تستقر في يـده الضخمة ، ورغم قصر قامتي .. لم اشعر ابدا بالتضاؤل امام ضخامة جسمه العملاق . كان متأنقا في ملبسه ، فأوحى لي مظهره بانه مدرس جديد ، ومن اللياقة الكلام معه في اي موضوع ، فجلست على اقرب مقعد منه ، ولاحظت ابتسامة مترددة تتراقص على شفتيه .. ان الطيبة تكاد تتجسد في عينيه .. هل انتقلت اليه من اهل هذه القرية ، وبهذه السرعة المذهلة ؟. وكان اول من بدأ الحديث عندما سأل :

ـ هل انت المدرس ...

وذكر اسمي .

ولم اعجب لمعرفته اسمي فلا شك ان المدير قد حدثه عن تكاسلي ، فهذا الموضوع اصبح من المواضيع المفضلة لديه ، حتـى اصبح يلوكه صباح مساء دائما ، بمناسبة وبغير مناسبة لذلك اكتفيت بقول :

ـ نعـم .

ثم استطردت متسائلا :

ـ واين المدير ؟

ـ انه يشغل حصتك التي تأخرت عنها .

واردت ان اسأله : لماذا لم يبعثك انـت لشغلها ولكني وجدته سؤالا غير مهذب فقلت بتخابث :

ـ انه مدير طيب .

ـ ولكنه يحمل رأيا غير حسن عنك .

ـ الواقع انني مقصر واعترف بذلك ولكن العذر معي ، وانصحك منذ الآن ان تتبع هذا الطريق اذا اردت الحصول على النقل الى اهلـك .

ولما وجدته ساكتا لم يعلق على ما قلـت استطردت وقد انثالت الكلمات بين شفتـي بحماس ، لادافع عن رأي غير مقتنع به :

ـ ان الاهمال علاج ناجح لمثل هذا المرض ، فلا تتأخر عن اخذ جرعة من نصائحي تكسبك المناعة ضد توبيخ المدير وصراخه الذي لا ينتهي .. انه رجل طيب لا يلبث ان ينسى كل شيء اذا تركته يقول كل ما عنده دون ان تحاول اثارته بالرد عليه .. عندما يتكلم .. عليك ان تصمت ، وبعبارة لطيفة تستطيع ان تكسبه الى صفك . وبذلك سيطلب هو نقلك لانه لا يستفيد من وجودك بالمدرسة ابدا .

وشعرت انني ترثرت بما فيه الكفاية وربما الزيادة ، فتوقفت عسى ان اسمع منه تعليقا مؤيدا لما قلت ولما لم يتكلم سألته :

ـ ما رأيك ؟

ـ انت مخطىء .

ـ ابدا .. انني محق

واستبد بي الحماس وانا اواصل : هذه هي الطريقة السليمة التي تضمن النقل ، وقد جربها من سبقك في هذا الميدان ، فكانت النتائج رائعة للغاية . وانقذ الموقف جرس المدرسة عندما ارتفع رنينه مجلجـلا ليعلن انتهاء الحصة ، وما هي غير لحظات حتى بدأ الضجيج يعم فناء المدرسة ، واخذ المدرسون يتوافدون على غرفة الادارة ، ولكن مظهر الجد المفتعل يميز تصرفاتهم الى درجة تلفت النظر ، فما هو سر هذه الرزانـة الطارئة .

وكان المدير آخر من حضر وهيئت نفسي للاستماع الى محاضرته المعهودة عن الواجب واهمية العمل على القيام به واضرار التساهل في ادائه ، ولكنه لاول مرة يخرق هذه القاعدة ، وينسى عادته المألوفة ، لينصرف بكل حرارة الى الشخص الذي كنت اكلمه قبل قليل.. ويعتذر له عن اضطراره الى التغيب عنه . ثم انهمك الاثنان في حديث هامس . وكنت انوي سؤال احد المدرسين عن الامر الذي اوقعني في شك مثير للاعصاب ، ولكن المدير قال قبل ان اتمكن من الكلام :

ـ سيادة المفتش يريد عقد اجتماع خاص معكم .

كان يوجه كلامه الى المدرسين ، ويشير في الوقت نفسه الى الشخص الذي كنت اظنه مدرسا ، فلما علمت انه مفتش اسقط في يدي واحرجتني نظراته التي وجهها الي ، وكانت تحمل اكثر من معنى ، ولا حاجة بي الى ذكر ان اكثر الكلام الذي دار في ذلك الاجتماع كان موجها لي ، حتى شعرت ان احساسا بالشماتة قد عشش في تلافيف عقول بقية المدرسين ، حتى مدبر المدرسة الذي عرف طرفا من الامر وهو يسكب الشاي في الفناجين اثناء الاجتماع ، لا شك انه وشفتاه تريلان كعادته تحدث الى كل من يعرف عن اللوم الموجه الي من الجميع .

وتنتهي زيارة المفتش للمدرسة واجد في دفتر الملاحظات في المدرسة كلامـا شديـد اللهجة موجها الي ، فاقرر البدء من جديد .

وعندما تسلمت في اخر السنة امرا يقضي بنقلي الى منطقة نائية بنـاء علـى تقرير المفتش .. لم احزن .. واقتنعت ان هذا جزاء عادل توقعته منذ ذلك اليوم الذي زار المدرسة فيه ذلك المفتش الذي ظننته مدرسا.

الدمام — خليل ابراهيم الفزيع



اعلام الفكر الاسلامي في العصر الحديث

تأليف المرحوم احمد تيمور باشا ـ نشرته لجنة نشر المؤلفات التيمورية يصدر قريبا في قرابة اربعمائة صفحة على مطابع دار النصر بالقاهرة وفيما يلي المقدمة التحليلية التي كتبها الشاعر محمد عبد الغني حسن لهذا الكتاب الثمين . وتعد خير تعريف لهذا المصدر الذي سيسد فراغا كبيرا في عالم التراجم المعاصرة .

يعلم الله قدر سعادتي حين عهدت الي « لجنة نشر المؤلفات التيمورية » ان اجول جولة في كتاب « اعلام الفكر الاسلامي في العصر الحديث » للمغفور له العلامة المحقق الاستاذ احمد تيمور باشا ، وان اخرج من هذه الجولة بكلمة اصدر بها هذا الكتاب . والحق ان كتب تيمور باشا ورسائله الجليلة غنية عن التقديم لها ، والتعريف بها ، فان اسم هذا العالم الباحث الكبير ضمان للجودة في التصنيف والدقة في التأليف

فالتأليف ـ عندي وكما كابدته ـ امانة لا يحملها الا امين . وليس التأليف ـ كمايزعم الفارغون ـ تسويد صفحات تسودمنها الوجوه، اوتحرير كلمات لا تحمل من امانة العلم ما يليق بجلال رسالته ، وجمال صناعته

ولقد عشت مع القدر الذي وصل الي من كتاب اعلام الفكر الاسلامي ساعات بل اياما عدة سعيدة . فقد نقلني مؤلفه العظيم ـ عليه رحمة الله ورضوانه ـ الى القرن الثالث عشر الهجري ، وابعد في النقلة الى مطالع ذلك القرن ، حيث عاش سنوات منه امثال الشيخ حسن العطار (1) ، ومحمد صنع الله الخالدي ، وكمال الدين الغزي ، وسليمان الموصلي ، وعلي السويدي البغدادي الاديب المحدث المؤرخ ، وغيرهم من عشرات العلماء الذين كانوا منارات علم ، او اعلام هداية ، وأساطين فكرة ، ودعامات نهضة ، وامتد البحث به ـ رحمه الله ـ الى الوراء قليلا ، حيث ترجم لحفنة من رجال القرن الثاني عشر .

ولم يختص احمد تيمور باشا بالترجمة والسيرة للرجال قطرا عربيا دون قطر ، بل نظر الى العروبة في اطارها الواسع ، وفي محيطها الشامل ، فترجم الاعلام من اهل المغرب والمشرق على السواء . وراح الى افريقية الشمالية يترجم لحفنة كريمة من اعلام تونس والجزائر والمغرب . وبهذا استوى عنده في العروبة القريب والبعيد، والحضرمي والكرخي ، والاسيوي والافريقي .

ولم يؤثر ـ رحمه الله ـ اهل طبقة واحدة ، ولا صناعة واحدة . فلم يجعل كتابه وقفا على تراجم الشعراء ، وسير الادباء ، بل وسع فيه المجال للعلماء ، والفقهاء ، واللغويين ، والمفسرين ، والمحدثين ، ورجال التصوف ، ورجال الاصلاح ، وزعماء الجهاد ، وخطباء الثورات ، فجاء بذلك سجلا حافلا، وباقة متنوعة الازهار ، وان كان لم يبلغ في عدد المترجم لهم ما بلغ مثل كتاب « حلية البشر ، في تاريخ القرن الثالث عشر » الذي الفه المرحوم الشيخ عبد الرزاق البيطار واصدره مجمع اللغة العربية : المجمع العلمي العربي ، بدمشق في ثلاثة اجزاء ضخام سنة ١٩٦٣ . فقد زادت التراجم هنا على سبعمائة ترجمة وسيرة ، على حين قلت في كتاب احمد تيمور باشا عن مائة . ولا يدل هذا على جدب في الارض ، او عقم في الروض ، ولكن علامتنا الراحل تخير من تلك الكثرة الكاثرة من اعلام القرنين الثالث عشر والرابع عشر من رأى في الترجمة لهم وفاء بحق ، او ايضاحا لمذهب ، او ايثارا يذكر . فكان شأنه في ذلك شأن من دخل الرياض فتحير فيها ، أيجني وردها ام اقاحها ؟!

على ان كتاب احمد تيمور قد اسعفنا في تراجم الرجال بمن يعز علينا ان نجدهم في مصدر اخر . فقد كتب عن العلامة الشيخ طاهر الجزائري الذي مات سنة ١٣٣٨ هـ ـ سنة ١٩٢٠ م بعد وفاة الشيخ عبد الرازق البيطار فلم يترجم له في موسوعته .. وكتب عن الشيخ مصطفى المغربي الدرغوثي ، لا التهامي ، كماوضع خطأ في رأس صفحة ٢٣٦ ـ وهو والد استاذنا وصديقنا العلامة الجليل المرحوم الشيخ عبد القادر المغربي عضو المجمع العلمي العربي بدمشق ، ومجمع اللغة العربية بمصر . ولقد انصف احمد تيمور بالترجمة للشيخ مصطفى المغربي نقلا عن الترجمة التي الفها ولده الشيخ عبد القادر المغربي ، فان البيطار صاحب حلية البشر ـ على كمال فضله ـ لم يترجم للشيخ مصطفى المغربي ، ولم يفسح له مكانا بين مئات الاعلام التي ترجم لها من رجال القرن الثالث عشر ، فشاء الله ان يسد احمد تيمور باشا هذه الثغرة في كتابه هذا الذي نقدمه لك ، وان يستدرك النسيان ، الذي هو من آفات الانسان ..

وأود ان اذكر هنا امرا واذيع سرا ، يسر له المشتغلون بتحقيق الكتب وآثار الاعلام . فان عنوان هذا الكتاب الذي نقدمه لك لم يكن للمرحوم تيمور باشا يد في اختياره ، ولا اثر في ايثاره . ولعله رحمه الله ـ لم يكن يخطر على باله ان يكون هذا العنوان عنوانا على تراجمه واعلامه التي آثرها بالترجمة لها . فالكتاب كله لاحمد تيمور ، والعنوان ليس له ، ولكن اللجنة اختارته له ، بعد ان وجدت هذه التراجم في آثاره ومخلفاته بلا عنوان .. ولعل هذا الاسم المستحدث يكون اقرب الى مراد علامتنا الراحل ، وأدنى الى غرضه ..

ان هذا الكتاب ليس من سبيل كتب التراجم لرجال القرون قرنا قرنا ، كما فعل ابن حجر في « الدرر الكامنة » والسخاوي في « الضوء اللامع » لرجال القرن التاسع ، والغزي في « الكواكب السائرة » لرجال المائة العاشرة ، والمحبي في « خلاصة الاثر » لرجال القرن الحادي عشر ، والمرادي في « سلك الدرر » لرجال القرن الثاني عشر ، وعبد الرازق البيطار في « حلية البشر » لرجال القرن الثالث عشر . لا ! ليس هذا من ذاك ! ولكنه كتاب جرى فيه مؤلفه ـ رحمه الله ـ على اختيار طائفة من اعيان القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، كما فعل مؤرخنا جرجي زيدان في « تراجم مشاهير الشرق » ، وحسن السندوبي في « اعيان البيان » ، وكما وفقني الله ان افعل في كتابي « اعلام من الشرق والغرب » الذي شرفني الاساتذة خير الدين الزركلي ، وعمر رضا كحالة ، ويوسف داغر ، بأن جعلوه من مصادرهم لكتبهم العظيمة في التراجم والاعلام .

واذا كان مؤرخنا جرجي زيدان ، وعلامتنا عبد الرازق البيطار قد فسحا المكان في كتابيهما لبعض العناصر النسوية الجديرة بالترجمة في نظريهما ، فان علامتنا احمد تيمور باشا قد قصر الباب في اعلامه على الرجال .. ولو شاء لوجد متسعا من الترجمة لاخته الشاعرة عائشة التيمورية ، ولباحثة البادية ملك حفني ناصف ، كما وجد الشيخ عبد الرازق البيطار متسعا في « حليته » للترجمة ـ مثلا ـ للسيدة رقية بنت ابراهيم السعدي ، الزاهرة الصوامة ، والعابدة القوامة ! ولكن احمد تيمور باشا كان ينتقي الاعلام ممن يمثلون الفكر العربي

الاسلامي في عصرهم اصدق تمثيل ..

واحمد تيمور باشا سلفي حتى في طريقة ضبطه للاعلام والاماكن . فهو يلجأ الى الضبط بالحروف والكلمات لا بالشكل . فهو حين يترجم للشيخ احمد مفتاح يذكر نسبته الى « عمار » ثم يضبطها هكذا: (بضم العين المهملة وتخفيف الميم) ص ١٦٩ . وكذلك يفعل حين يذكر القرى والبلدان الصغيرة ، فانه ينسبها الى الويتها او مديرياتها ، كما فعل حين تحدث عن الشيخ محمد الاشموني ، فذكر ان (أصله من اشمون جريس ، قرية من أعمال المنوفية) ص ٤١ . وقد جرى في الاغلب على هذه الطريقة الواضحة الموضحة ، وان كان قد مال الى تركها في احوال نادرة ، كما فعل في قرية « سفط القطايا » ص ١٠٢ ، فانه تركها بدون تعريف او الحاق بأقليم من الاقاليم .

ولقد عول احمد تيمور باشا في الترجمة لهؤلاء الاعلام على المصادر التي يمكن ان يعول عليها او يستند اليها محقق . فرجع الى الكتب ما بين مخطوط ومطبوع ، وما بين عربي وأعجمي . ورجع الى اناس يسألهم او يستمع منهم . فيقول : بلغني كذا ، او حدثني فلان بكذا - كما في صفحتي ٧٥ ، ٧٧ - ورجع الى بعض المترجم لهم ممن ادركهم (٢) . وهو في هذه الحالة الثالثة يكتب عن معاينة ، وعن صلة وتجربة ، لكن « المعاصرة » لم تحل دون صاحبنا ودون كلمة الحق والانصاف . فما كان يحكم عن هوى ، ولا يصدر في الرأي عن تعصب ، ولا تميل به دواعي الحب والكراهية الى ايثار الصديق ، وغمط الحقوق . .

ففي ترجمته للشيخ الاديب احمد ابي الفرج الدمنهوري قال ما للرجل وما عليه في عفة وادب وقصد في الكلام ، وبعيد عن الايلام . وحسبك هذه الصورة الطريفة بقلم احمد تيمور للشيخ الدمنهوري حيث قال : (وكان اجتماعي به في مجلس أحد الاعيان ، وانا شاب يافع متعلق بالادب واهله ، ولم اكن قد لقيته من قبل ، بل كنت اسمع به ، واشتاق الى رؤيته . فرأيت عجبا ! رأيت شيخا قصيرا دميم الوجه ، قد ذهبت احدى عينيه . عليه جبة واسعة الاكمام، وهو جالس في زاوية من المكان يملي على شخص حسن الخط ، دالية من الطويل - يعني تيمور باشا قصيدة دالية من البحر الطويل - منصوبة الروي جعلها تهنئة للخديو توفيق بقدومه من الاسكندرية . وكان منه من الوقوف عند كل بيت والاعجاب به على ما تقدم ذكره ، ما نبهني للالتفات اليه . ثم مر بيت قافيته لفظة « ومعضدا » فوثب من مكانه ، ونبه الحاضرين الى انها تورية ، باسم الخليفة المعتضد بالله ، فلم يوافقوه ! فأعرض عنهم ! وأقبل على الكاتب يشرح له حسن هذه التورية ! وانها لم تتهيأ له الا بعد اعمال الفكر والروية ! حتى اضجره ، ورمى الدرج من يده ! فغلبني الضحك ، واستظرفته)!

ومثل هذه الحوادث الشخصية غير قليل في تراجم احمد تيمور . ففي ترجمته للشيخ حسن الطويل ، يذكر لنا كيف اجتمع به ، وكيف قرأ عليه ، وكيف كان على حيرة من الامر في بعض البدع التي ألصقت بالدين ، والخرافات التي نسبت ظلما اليه، الى ان هداه الله الى التعرف على الشيخ ، فصحح له العقيدة ، وجعله على بينة من امر دينه ، ونفى له من الخزعبلات ما لصق به . ولا يكتفي مؤرخنا الجليل بهذا ، بل يذكر في خلال الترجمة ما يشبه المذكرات اليومية ، ولا يتحرج من التصريح بأنه جلس مع الشيخ حسن الطويل في صحن الدار يلعبان الشطرنج ! (وكان الشيخ مولعا به مع قلة اجادته فيه) .

ولقد اجاد احمد تيمور باشا تصوير الرجال الذين ترجم لهم على صلة بهم . وتمتاز صوره في هذا الباب بالدقة التامة ، حتى لا يكاد يخطىء عينه النافذة شيء من ملامح الصورة ودقائقها ، ثم يزيد هذه الصورة طرافة واشراقا بالتعبير الدقيق الجميل . وأسألك بالله وبالادب الرفيع أيها القاريء الكريم ان تقول لي رأيك في هذه الصورة لاديب مفتون بشعره يقول فيها احمد تيمور : (وكان على قلة اجادته في شعره مفتونا به ، مبالغا في تقريظه وقت انشاده . يمزج ذلك بأشارات وحركات تستظرف منه . ولا يكاد يقر لاحد بالتقدم عليه في النظم . ولعمري لا ارى عبارة تفي بوصفه ووصف حركاته عند الانشاد، وقيامه وقعوده ، والتفاته ، واستدعائه الحاضرين الى استماعه !! فانه كان اذا اراد انشاد قصيدة من نظمه بدأ اولا بتقريظها ، ونبه الحاضرين الى مواضع الاجادة منها ، فاذا القوا اليه بسمعهم ، انشد المطلع ، وسكت هنيهة كالمأخوذ من جودته ، ثم التفت يمنة ويسرة ، مستطلعا خبيئة رأيهم فيه ! واستحلفهم بالله وانبيائه : هل طرق آذانهم مثله في عمرهم ؟! وهل تهيأ لشاعر قبله ما تهيأ له من رشاقة المبنى ، وغرابة المعنى ، وتناسب الشطرين ؟!)

والفقه في لسان احمد تيمور واضحة في تراجمه لمن عرفهم عن قرب ، وابتلاهم عن تجربة . واذا كنا نعرف ان السخاوي المؤرخ العربي المشهور قد وقع في بعض اعلام عصره وهو يترجم لهم ، فان مؤرخنا احمد تيمور كان عفيف اللسان حتى مع الذين لم تسلم سيرتهم من عثرات وسقطات . وتراه في هذا انسانا كامل الانسانية ، يلتمس الاعذار للناس حين ينزلقون . وبهذا رزق - رحمه الله - اسمح ما في الدنيا من خلق ، على حد قول شاعرنا احمد شوقي في نهج البردة :

رزقت اسمح ما في الناس من خلق
اذا رزقت التماس العذر في الشيم

ما أعف لسان احمد تيمور وهو يتحدث عن الشيخ احمد الرفاعي استاذ الشيخ محمد عبده ، والشيخ محمد بخيت ، والشيخ محمد ابي الفضل الجيزاوي قائلا : (ثم وقعت منه في اخر ايام زلة ، قيل انه تصرف في وقت بغير وجه شرعي ، ولكن الله لطف به ، فلم يقع له بسبب ذلك غير فصله من القاريء) ..

أرأيت عبارة اكثر تهذيبا من هذه ؟ فهو يذكر الحقائق المتصلة بالشخص ، ولكن في انسانية كاملة ، وفي بعد بعيد عن التشهير والتجريح . وتتجلى انسانية احمد تيمور وعفة لسانه وانصافه في وزن الرجال وتقديرهم في قوله في الترجمة للشيخ حسونة النواوي : (والحقيقة ان الشيخ لم يعهد عليه ما يشين دينه ولا دنياه ، بل عرف بالعفة ، وعلو الهمة ، ونقاء اليد . ولولا جفاء كان يبدو بعض الاحيان في منطقه ، وشدة فية يراها بعض الناس غلظة ويعدها البعض شهامة لحفظ ناموس العلم ، خصوصا مع الكبراء الذين افسدهم تملق علماء السوء ، وحملهم على الاستهانة بهذه الطائفة) . صفحة ١١٨

وتذكرنا هذه العفة اللسانية ، والصقل في التعبير ، والتحرز في ذكر المساويء بذلك المنهج الكريم الذي اتبعه صديقنا العالم الكبير الاستاذ خير الدين الزركلي في موسوعته الكبيرة : « الاعلام » التي لا يستغني عنها اليوم مؤرخ ، ولا باحث ، ولا كاتب .

ولم يخرج تيمور باشا في مقدار الترجمة لكل شخصية على النهج الذي سلكه سابقوه من كتاب التراجم في الادب العربي : فهو تارة

---

(١) الشيخ حسن العطار هو استاذ الشيخ رفاعة الطهطاوي رائد النهضة الحديثة . وهو صاحب الصيحة الكبرى في وجوب تعلم العلوم التطبيقية العملية النافعة بدلا من علوم الجدل الازهرية ، وصاحب فكرة ارسال البعوث العلمية الى اوربا في القرن ١٩ التي اخذ بها محمد علي باشا . ولنا فيه دراسة مطولة ستصدر قريبا عن دار المعارف بمصر في مجموعة نوابغ الفكر العربي . (٢) هناك تراجم لم يكتبهااحمدتيمور بقلمه ، ولكنه طلب كتابتها من بعض اقارب المترجم لهم . كترجمة الشيخ احمد الفحماوي ، فقد طلب كتابتها من ولده محمد عارف المدرس بمدرسة الهندسة المصرية . (٣) انظر كتاب (حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي) بقلم المستشرق اغناطيوس كراتشكوفسكي ، وترجمة السيدة كلثوم عودة ، وتحقيق محمد عبد الغني حسن ، صفة ٢٢ . وهو من مطبوعات المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب بالقاهرة . سنة ١٩٦٤

يطيل في الترجمة لواحد من الاعلام ، وطورا يوجز الى حد كبير في الترجمة لاخر . ففي ترجمته للشيخ حسن العطار ـ موجه مصر الى الاخذ بالعلوم الحديثة ـ قد بلغ ثماني صفحات ، على حين ان ترجمته للشيخ محمد ابي الفتح لم تبلغ صفحتين ، اما ترجمته للسيد عبد الله النديم فقد بلغت ثلاثا وعشرين صفحة وكذلك ترجمته للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده . والحق ان شخصية المترجم له والحوادث المحيطة به ، هي التي تملي على كاتب السيرة ، وتحدد له المجال الذي يترجم لـه بـه ..

وعلى الرغم من الدقة التي امتاز بها علامتنا الكبير احمد تيمور لم يستأثر دائما بكلمة الفصل في الحقائق التي يذكرها.. فقد ذكرمثلا في صفحة ٤٥ ان الشيخ محمد عياد الطنطاوي الرائد العربي الاول في الروسيا ـ ولد في طنطا ، على حين يؤكد لنـا المستشرق الكبير اغناطيوس كراتشكوفسكي انه ولد في قرية « نجريد » من اعمـال طنطا . وقد اتبع تيمور في هذا رأي المستشرق الروسي « فالين » مع ان كراتشكوفسكي يؤكد انه واهم في هذا (٣) . اما وفاة محمد عياد الطنطاوي فهي في سنة ١٨٦١ ـ لا في سنة ١٨٦٢ كما ذكر وهما في رأس ترجمته صفحة ٤٥ .

انا واثق ان الشبان سيقرءون كتاب « اعلام الفكر الاسلامي في العصر الحديث » بشغف ومتعة وفائدة ، لانهم سيجدون فيه نماذج من العصامية الفكرية والجهاد في سبيل الله والعروبة والاسلام . اما الشيوخ فسيجدون فيه صورا وذكريات مـن بواكير شبابهم ، بل صورا وذكريات من تاريخ مصر والبلاد العربية التي كتب الله لها ان تتحرر من اغلال الاستعمار ، وان تتخلص من اصفاد الجامد من الاراء والافكار .

القاهرة — محمد عبد الغني حسن

•

١ ـ دراسات مغربية STUDI MAGRIBINI

معهد نابولي الشرقي الجامعي ـ ٢٥٠ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة دون بوسكو ـ رومـا

٢ ـ اسـماء الاسماك في بلدان حوض البحر المتوسط العربية
L'ittionimia Nei Paesi Arabi del Mediterraneo

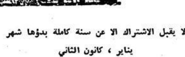
للمستشرق الايطالي جوفاني أومـان ـ ٢٦٠ صفحة ـ حجم كبير ـ دار اولسكي ـ فلورنسا

هذان كتابان ضخمـان صدرا اخيرا في ايطاليا ، يتجلى فيهما الجهد العلمي الجبار ، والبحث الـذي لا يعرف الملل ، ولا يهـن امام الصعوبات . وهاتان ميزتان نعرفهما في المستشرقين عامة ، ونقدرهما لهم حق قدرهما .

الكتاب الاول : (دراسات مغربية) صدر عن مركز الدراسـات المغربية الذي انشاه اساتذة معهد نابولي الشرقي الجامعي . ومعهد نابولي الشرقي هذا من اقدم معاهد الاستشراق في اوروبا ، واقدمها في ايطاليا ، فعمره الان نحو ثلاثة قرون ، ويعمل فيه عدد من كبار المستشرقين والمستشرقات الايطاليين ، ويديره اليوم البروفسور اليسيو بومباتشي ، ويرأس القسم العربي فيه البروفسور روبرتو روبيناتشي ، ويساعدهما في تدريس مختلف اللغات الشرقية السيدة لاورا فيتشيـا فاليبري ـ رئيسة المعهد السابقة قبل ان تحال على التقاعد ـ والسيدة كليليا سارنيللي ، والاساتذة اليساندرو باوزاني ، وانطونيو تشيزارو ، وجوفاني اومان ، وغيرهم .

اما في التعريف بمركز الدراسات المغربية في هذا المعهد ، وسبب

الاديـب



⊙

لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العـادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

•

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي

٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى

فـي الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنـى

•

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابهـا سواء نشرت ام لـم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلـة

•

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ المنزل ٢٢٥١٣٩ — Tel : Dir : 223819 Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

•

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

البيـر اديب

انشائه ، فانني انقل هنا عـن الايطالية ما جاء في مقدمة هذا الكتاب القيم . لقد جاء فيها ما يلي : ((هذه المجموعة من الدراسات المخصصة لبلدان المغرب تؤلف اول مظهر من مظاهر نشاط (مركز الدراسات المغربية) الذي انشيء عام ١٩٦٦ في معهد نابولي الشرقي الجامعي .

ومعهد نابولي الشرقي الجامعي ، بتقاليده الطويلة الحافلـة بالدراسات العربية والاسلامية ، لم يكن في وسعه ان يظل بمنأى عن الابحاث الخصبة التي تتميز بها اليوم الحياة الثقافية في البلـدان الصديقة التي تقابلنا عن شواطيء البحر المتوسـط . والاستقلال السياسي الذي نالته هذه الاقطار اخيرا يجعلنا نشعر بان هذه الابحاث عرفان ضروري ، واعجاب بماضيها القريب والبعيد . ومـن نافلة القول ان نذكر مدى ارتباط ايطاليا بالاقطار المغربية : فهو ارتباط حيوي دائما بالنسبة الينا مهما اختلفت الظروف ... وهذا ما يبرر الاهتمـام والمودة اللذين كان علماؤنا وما يزالون يبدونهما نحـو ثقافة الشمـال الافريقي واحداثه .

انطلاقا من هذه الروح انشأنا مركز الدراسات المغربية ، وفـي نيتنا ان نضم جميع الذين يوجهون دراساتهم نحو حضارة المغرب ، لكي تستطيع المعرفة التاريخية ، بالتعاون الدولي الدائب ، وبأخوة المقاصد ، ان تمضي قدما ، مقترنة بالصداقة العميقة الدائمة والتفاهم بـين ايطاليا واقطار المغرب .

وهذا الجزء الاول مـن ((دراسات مغربية)) ، الذي ستتلوه أجزاء اخرى متعددة المواضيع ، او ذات موضوع واحد معين ، هو كسائـر البدايات لا يخلو من الشوائب التي نأمل في أن نتغلب عليها ، او على الاقل ان نحد منها ، في المستقبل . غير اننا نعتقد بأنه يقدم نموذجـا مرضيا مـن النوايا والاسس التي نسير عليها : وهي التعاون الدولـي الذي لا يعرف الحواجز ، والذي يتطلع الى مزيد من الدارسين والباحثين المهتمين بالمغرب ..

وليس جهدنا هذا سوى بداية متواضعة ، بطبيعة الحال ، الا انه في الوقت نفسه دعوة الى كل من يشاركنا في اهدافنا . وهو كذلـك امنية لتعاون اوفر غنى وخصبا على الدوام بين ايطاليا واقطار المغرب .

بعد هذه المقدمة التي حددت اهداف مركز الدراسات المغربية ، واهداف هذا الكتاب الاول الذي صدر عنه ، أود ان أشير الى بعض ما تضمنه هذا الكتاب الذي يقع في ٢٥٠ صفحة مـن القطع الضخم .

يشتمل هذا الكتاب على تسعة فصول متفاوتة في الطول والتفاصيل : الاول منها حول (مقدمة كتاب روجار ــ للادريسي) يتحدث فيه الاستاذ روبرتو روبيناتشي عن الجهد الذي بذله في مقارنة نسخ الكتاب في عدد من المكتبات في الشرق والغرب في سبيل تحقيق مقدمة الكتاب وحدها ــ المشتركون في تحقيق كتاب ((نزهة الافاق)) للادريسي عديدون، من المستشرقين والعرب ، والمقدمة وحدها هي حصة روبيناتشي منه ــ وبعد بحث طويل مفصل حول مختلف النسخ التي اطلع عليها ، ومـا فيها مـن الاختلافات والفروق ، يورد المقدمة كاملة بالعربية كما توصل الى تحقيقها بعد البحث والدراسة الطويلين .

والبحث الثاني بالفرنسية ، وهو للمستشرق لويكي ، حـول ((نزهة المشتاق في اختراق الافاق ــ للادريسي)) .

وهناك ابحـاث لمستشرقين آخرين : ايطاليين ، وفرنسيين ، وبرتغاليين ، تحمل العناوين التالية : (ملاحظات ليبية ــ وثائق نادرة غير منشورة عن تاريخ تونس في عامي ١٥٧٣ و ١٥٧٤ ــ التسيير الذاتي في الجزائر ١٩٦٢ ــ ١٩٦٥ ــ وثيقة اباظية قديمة حول القرآن ــ اوراق عربية مغربية ذات صلة بالبرتغال ــ هرب الشهاب أحمد الحجري الاندلسي الى المغرب) وهذا البحث الاخير (هرب الشهاب احمد الحجري) للمستشرقة السيدة كليليا سارنيللي ، وكانت قد تحدثت في الموضوع عينه في مؤتمر الدراسات العربية والاسلامية الاخير في رافيللو ــ ايطاليا ، العام الماضي . وكان بحثها هذا من أمتع البحوث

التي تليت في المؤتمر المذكور .

وليس في وسعي ان امضي في حديث مسهب عن كل واحد من البحوث التي يشتمل عليها هذا الكتاب ، وانما اردت التنويه به ، وبجهود هؤلاء المستشرقين الذين يعيشون ، وينتجون جاهدين مخلصين لخدمة العرب ولغة الضاد ، ويجدون لذتهم كلها في هذه الخدمـة الجليلة . حياهم الله وبارك في همتهم .

اما الكتاب الثاني فهو لمستشرق ايطالي شاب ، هو الاستاذ جوفاني أومان ، احد اساتذة معهد نابولي الشرقي الجامعي . وهذا المستشرق يتكلم العربية ويجيدها بطلاقة تامة : فقد ولد في مصر ، وعاش فيهـا فترة شبابه الاولى كلها حتى عهد الدراسة الجامعية . اما كتابـه ((اسماء الاسماك في بلدان البحر المتوسط)) فهو اول كتاب من نوعه يقع بين يدي . وهو عندي طريف نادر . وكان الاستاذ أومان قد حدثني منذ سنوات عن انهماكه في وضعه . وفي آخر لقاء لنا ، في مؤتمـر الدراسات العربية والاسلامية في رافيللو عام ١٩٦٦ ، اعرب لي عـن رغبته في زيارة الاردن لمعرفة اسماء الاسماك لدى المهتمين بصناعـة صيد السمك في الاردن .

لهذا كان وصول الكتاب الي مفاجأة غير متوقعة في هذا الوقت المبكر . ولكنه كان الى جانب ذلك عملا يثير الدهشة والاعجاب معـا ، كأغلب ما ينتجه هؤلاء المستشرقون ذوو الجلد العجيب والعزيمة الجبارة.

لقد صدر هذا الكتاب عن دار ((ليو س. أولسكي)) في فلورنسا ، في نحو ٢٦٠ صفحة من القطع الكبير . وهو ينقسم الى ستة ابواب ، عدا المقدمة التي وضعها الكاتب كارلو تاليافيني لشرح الجهد الذي بذله المؤلف وكانت نتيجته هذا الكتاب .

القسم الاول من الكتاب هو البحث الواسع الضافي وضعه المؤلف حول العمل الذي قام به ، وحول الوسائل التي استخدمها والمراجع التي استعان بها للحصول على المعلومات . وهو في هذا البحث يفصل الحديث عن مناطق اصطياد الاسماك على شواطيء البحر المتوسط . ويقسم هذه المناطق الى ثلاثة اقسام ، (١ ــ المنطقة التي تبدأ شرقا بالشواطيء السورية واللبنانية ، وتنتهي غربا بالشواطيء المغربية ــ ٢ ــ منطقة على المحيط الاطلسي من طنجة الى موريتانيا ــ ٣ ــ ضفتا البحر الاحمر عبر قناة السويس . وهذه المنطقة الثالثة تمتد في اتجاهين : يصل احدهما الى الخليج العربي ــ وهو يدعوه بالخليج الفارسي ــ عبر خليج عدن وعمان ، ويمضي الاتجاه الاخر مع البحر العربي حتى شواطيء الصومال الافريقية وزنجبار) .

اما الوسائل التي استعان بها للوصول الى ما جمعه من اسمـاء الاسماك في هذه المناطق ، واختلاف هذه الاسماء بين منطقة واخرى ، او بين بلدة وبلدة ، فتعتمد على المعاجم والكتب الغربية الموضوعة في هذا الصدد ، ثم على الحديث الشخصي مع الملاحين الذي يصلون بسفنهم الى تلك المناطق ، او يتعاملون مع مصدري الاسماك ، واخيرا الاتصال المباشر بالعاملين في صيد الاسماك في بعض الاقطار . وبهـذا الجهد المتواصل الدائب كان لدينا هـذا الكتاب النادر عن انـواع الاسماك ، وتسمياتها المختلفة في العديد من البلدان والموانيء البحرية.

ولم يكتف المؤلف بهذا البحث الذي استغرق ثماني عشرة صفحة كبيرة بحروف دقيقة ، بل شاء ان يجعل عمله اكثر نفعا ، فاضـاف اليه أربع عشرة صفحة اخرى ملأها بالمعلومات الجغرافية والتاريخية تعريفا بالجزر والبلدان البحرية المشهورة بصيد الاسماك في حوض المتوسط ، وتشمل : (أرواد ــ طرابلس لبنان ــ صيدا ــ اسكندرية ــ دمياط ــ السويس ــ بنغازي ــ طرابلس الغرب ــ كركينا ــ صفاقس ــ المهدية ــ مرسى الخرز ــ عنابة ــ ميناء كول ــ شرشل ــ المرسى الكبير ــ الهوسيماس ــ سيوتا ــ العرائس) وتلا ذلك بخريطة لحوض المتوسط ، توضح الموانيء والبلدان البحرية الوارد ذكرها في الكتاب .

بعد ذلك يمضي المؤلف في تصنيف الاسماك ، وذكـر مختلف

تسمياتها العربية ، الى جانب الاسماء العلمية اللاتينية ، والاسماء المعروفة بالايطالية ، والانكليزية ، والفرنسية . وهذا يستغرق ٢٠٤ صفحات .

ثم يلي ذلك فهرسان طويلان جدا : الاول يشتمل على اسماء الأسماك باللاتينية وما يقابلها بالايطالية ، والانكليزية ، والفرنسية وحدها . والثاني الاسماء العربية وحدها ، مع الصفحات التي وردت فيها . الجدول الاول يستغرق من الصفحة ٢٠٧ الى ٢٧٦ ، والثاني من الصفحة ٢٧٨ الى ٢٩٥ .

وكم كنت أود ان اورد هنا صفحة واحدة على الاقل من صفحات هذا الكتاب ، لكي أبين للقاريء كيف رتب المؤلف تصنيفاته للاسماك ، وكيف اورد مختلف التسميات ، مع مختلف المراجع والاسانيد ، ومع البلدان التي وردت فيها التسميات . غير ان مثل هذا العمل الذي يجمع بين لغات متعددة ، ومراجع اكثر تعددا بلغات مختلفة ، ليس من الأمور السهلة في مجلة عربية . وحسبي هنا ان أشيد بجهد هذا المؤلف والصديق النابه ، فهو جدير بكل تقدير واعجاب .

عمان ـ الاردن　　　　عيسى الناعوزي

•

المجمع العلمي العراقي : نشأته ـ اعضاؤه ـ اعماله

تاليف عبد الله الجبوري ـ ١٨٨ صفحة ـ نشره المجمع العراقي ببغداد

في العالم العربي اليوم ثلاثة مجامع لغوية هي ـ بحسب تاريخ انشائها ـ المجمع العلمي العربي بدمشق ، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة ، والمجمع العلمي العراقي ببغداد . وقد سبق ان عرف بالمجمعين الاولين ، عرف بالاول الاستاذ احمد الفتيح في كتابه « تاريخ المجمع العلمي العربي » ، وتلاه الدكتور ابراهيم مدكور بتاريخه المجمع الثاني في كتابه « مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما : ماضيه وحاضره » . واليوم يعرف بالمجمع الاخير الاستاذ عبدالله الجبوري في كتابه « المجمع العلمي العراقي : نشأته ـ أعضاؤه ـ أعماله » وهذا الكتاب يقع في ١٨٨ صفحة نشره المجمع المعرف به بمناسبة انعقاد مؤتمر مجمع اللغة العربية والمجمع العلمي العراقي ببغداد في نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩٦٥ .

استهل المؤلف كتابه بمقدمة تاريخية موجزة عن المجامع العلمية في العالم العربي مبتدئا بالاشارة الى اول مجمع علمي في التاريخ وهو اكاديمية افلاطون ، ثم بمجامع العرب في الجاهلية (ندوة قريش ـ أسواق العرب) ، وفي عصري بني أمية والعباسيين . وانتقل بعد ذلك الى المجامع العربية الحديثة علمية كانت او لغوية . فبدأ بمصر وتحدث حديثا عاجلا عن المجمع العلمي المصري ، ثم مجمع توفيق البكري ، ومجمع نادي دار العلوم ، والمجمع اللغوي المعروف بمجمع دار الكتب ، ثم مجمع اللغة العربية الذي انشيء عام ١٩٣٢ ولا يزال قائما يؤدي رسالته . وانتقل بعد ذلك الى سوريا فتحدث عن المجمع العلمي العربي ثم انتقل من سوريا الى لبنان فاشار الى المجامع العلمية التي أنشئت به في القرنين التاسع عشر والعشرين . واخيرا تحدث عن مجامع العراق ، فتكلم عن اول محاولة لتأسيس مجمع علمي في العراق وانها كانت سنة ١٩٢١ ، فقد قام المرحوم « ثابت عبد النور » بتأسيس المعهد العلمي البغدادي كما تقدم سنة ١٩٢٥ الى وزارة المعارف بطلب يرغب اليها في تأسيس مجمع علمي . وذكر المؤلف انه تشكلت لجنة لهذا الغرض ، ولكنها ما لبثت ان عصفت بها ريح الضياع . وتكلم بعد ذلك عن نادي القلم العراقي الذي اسس في بغداد سنة ١٩٣٤ ، ثم عن لجنة التاليف والنشر المؤسسة سنة ١٩٤٥. وانتقل اخيرا الى الحديث عن المجمع العلمي العراقي الذي انشيء سنة ١٩٤٧ ، وهو بيت القصيد : تحدث عنه في عهديه، الاول من تاريخ انشائه سنة ١٩٤٧ الى سنة ١٩٦٣ (ثورة ١٤ رمضان سنة ١٣٨٣) والثاني من بعد ثورة رمضان سنة ١٣٨٣ الى الآن ، وقد اطلق على العهد الأول المجمع العلمي العراقي القديم أو الأول ، وعلى الثاني المجمع العلمي العراقي الجديد أو الثاني .

وقد تناول المؤلف المجمع في عهديه بالتفصيل من حيث مقره واعضاؤه (مترجما لكل منهم) ومطبعته وميزانية ومجلته (محصيا ما نشر بها من مقالات) والكتب التي نشرها او التي ساعد على نشرها.

وصفوة القول ان الكتاب عمل عظيم بذل فيه المؤلف جهدا كبيرا يستحق عليه أجزل الشكر وأعظم الثناء . لكنه كاي عمل لايخلو من نقص ، فالكمال لله وحده . ولي عليه ملاحظات ، اذكر منها :

١ ـ كان من الاوفق للمؤلف وهو يمهد للحديث عن «المجمع العلمي العراقي» ان يكتفي بالبيئات اللغوية . فلا داعي للتعرض للمجمع العلمي المصري ولا للمجامع الادبية التي انشئت في لبنان والعراق ، لانه في هذا الكتاب يتحدث عن مجمع لغوي . وعلى الرغم من ان هذا المجمع اهتم بالنواحي العامية بدليل مانشره من كتب علمية تطبيقا للفقرة « هـ » من المادة الثانية من نظامه سنة ١٩٤٧ والتي تنص على أن « يقوم المجمع بالبحث في العلوم والفنون الحديثة وتشجيع الترجمة والتاليف فيها وبث الروح العلمي في البلاد ». الا ان الناحية اللغوية الصق به وهذا واضح من مواد نظامه سنة ١٩٤٧ وقانون سنة ١٩٦٣ الذي حذف العبارة الخاصة « بالبحث في العلوم والفنون الحديثة » في حين أنه نص على ان يتوسل لتحقيق غاياته بوضع معجمات لغوية وعلمية . هذا وان التعرض للبيئات غير اللغوية يدخل المؤلف في بحر عميق لا قرار له . فالبيئات الادبية والعلمية كثيرة كالمجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالقاهرة والجمعيات العلمية في

البلاد العربية مما لم يتعرض لها المؤلف . ومع حديثه عن بعض البيئات غير اللغوية ، فقد فاتته بعض مجامع لغوية (سنذكرها بعد ذلك) كان يحسن الاشارة اليها .

٢ ـ جاء في الصفحة الخامسة عشرة عند الحديث عن المجمع اللغوي الذي رأسه السيد توفيق البكري سنة ١٨٩٢ انه « عطل بعد بضع سنوات ، ثم أعيد وبقى الى مابعد سنة ١٩٢٢ » . ولاأدري من اين جاء المؤلف بهذه المعلومات . اذ المعروف ان هذا لم يعقد سوى سبع جلسات ـ كما ذكر المؤلف ـ كانت الأولى يوم ٢١ من شوال سنة ١٣٠٩ « ١٨ مايو سنة ١٨٩٢ ، والأخيرة يوم آخر رجب سنة ١٣١٠ « ١٧ فبراير سنة ١٨٩٣ » (راجع « جاحتنا اللغوية الى مجمع يوثق به » مقال نشر بمجلة الزهراء م/٤ ص ٢٠٦ ، و « محاولات لانشاء مجمع يوثق به » مقال لتوفيق حبيب ، نشر بالمقتطف م/٧٢ ص ٥٨) .

٣ ـ ذكر المؤلف في الصفحة السادسة عشرة ان خريجي دار العلوم انشؤوا لهم ناديا في سنة ١٩٠٢ وهو خطأ مطبعي كما اعتقد. والصواب أنه أنشىء سنة ١٩٠٧ (راجع : تقويم دار العلوم لمحمد عبد الجواد ص ٥٠٧ ، وصحيفة دار العلوم س /١ع/٤ ص ٨٧ ، والمقتطف م/٧٢ ص ٦٠) .

وهذا الخطأ المطبعي ترتب عليه خطأ آخر فقد ذكر بعد ذلك ، في نفس الصفحة « وبعد نحو عشر سنين اجتمع لفيف من فضلاء اهل العلم في القاهرة في مأدبة ادبها لهم السيد اسماعيل عاصم المحامي ، فاتفقوا على انشاء مجمع لغوي » . وهذا الاجتماع اقيم سنة ١٩١٦ احتفالا بمرور اربعين عاما على انشاء مجلة المقتطف (راجع : « المجمع اللغوي المأمول » مقال للشيخ محمد رشيد رضا ، نشر بالمقتطف م ـ ٤٨ ص ٥٢٣) والمعروف ان المقتطف أنشئت سنة ١٨٧٦ . وقد عقد المجمع أولى جلساته في ٢٤ يونيو (حزيران) سنة ١٩١٦ (المقتطف م ـ ٧٢ ص ٦٢) وقد اشتهر هذا المجمع باسم مجمع دار الكتب مقر اجتماعاته.

٤ ـ لم يشر المؤلف الى مجمع لغوي آخر انشيء بمصر . وهذا المجمع اسسه « ادريس راغب » سنة ١٩٢١ ، وهو لا يقل شانا عن مجمع دار الكتب ، فقد عقد نحو اربعين جلسة كانت الاخيرة في ٤ من ديسمبر (كانون الاول) سنة ١٩٢٥ (« المجمع اللغوي والمجمع العلمي » مقال للاستاذ عبد الفتاح عبادة « سكرتير المجمع » نشر بالهلال م ـ ٣٦ ص ٣٠٨ ، وانظر « المجامع العلمية في الشام ومصر » مقال لعيسى اسكندر المعلوف ، نشر بالهلال م ـ ٤٨ ص ١٧٥ ، وقد اشار الى هذا المجمع منصور فهمي في مجلة مجمع اللغة العربية حـ ١ ص ١٧٥) .

٥ ـ ذكر المؤلف في نفس الصفحة ايضا (السادسة عشرة) انه « في سنة ١٩٣٢ انشيء المجمع اللغوي المصري في القاهرة باسم « مجمع اللغة العربية الملكي » الذي استبدل اسمه الى اسم « مجمع فؤاد الاول للغة العربية » ... وكان يجب عليه ان يعقب على ذلك بأن هذا الاسم غير بعد ثورة سنة ١٩٥٢ ليكون « مجمع اللغة العربية » (راجع محضر الجلسة السابعة عشرة لمجلس المجمع في الدورة العشرين) .

٦ ـ كان يحسن بالمؤلف وقد اورد اول مرسوم خاص بتعيين اعضاء مجمع اللغة العربية ان يشير في حاشية الصفحة الثانية والعشرين الى ان تعيين الاستاذ « فشتك » قد الغي ، واستبدل به الاستاذ « ليتمان » بمرسوم صدر في ٢٤ من يناير سنة ١٩٣٤.

٧ ـ قال المؤلف في الصفحة الثلاثين « وفي سنة ١٩٢٠ اسس « المجمع العلمي اللبناني » في بيروت ، ولكنا لم نقف على نشرة له تظهر نشاطه واعماله الفكرية ، وما عتم حتى حتى عصفت به اوافح التشتيت فاقضته من اصوله ولم يقم غيره حتى كتابة هذه الاسطر » وذكر في الحاشية « انباني الاستاذ كوركيس عواد بانه قد وقف على نشرة عنوانها « المجمع العلمي اللبناني » ولم يتذكر ما ضمنته دفتاها ».

وحقيقة الامر انه اجتمع لفيف من علماء بيروت في عام ١٩٢٠ وقرروا ضرورة انشاء مجمع لغوي ، الا ان هذه الفكرة لم تخرج الى حيز الوجود الا في اوائل سنة ١٩٢٨ (الهلال م ـ ٤٨ حـ ٥ ص ٥٧١) حين اصدر رئيس الجمهورية اللبنانية مرسوما يقضي بتاليف هذا المجمع وتعيين اعضائه (راجع ثبتا باعضائه في «المجلة السورية س ـ ٣ حـ ٢ ص ١٣١) . وقد عقد المجمع جلسته الاولى في ٩ من مارس (اذار) سنة ١٩٢٨ ، اختير فيها الشيخ عبد الله البستاني رئيسا (المجلة السورية س ـ ٣ حـ ٣ ص ٢٠٥) . ثم تولى رئاسة المجمع بعد البستاني « وديع عقل » في ٢٥ اكتوبر (تشرين الاول) سنة ١٩٢٨ (المجمع العلمي اللبناني ص ٧) ثم خلفه « جميل بيهم » في ١٨ اكتوبر سنة ١٩٢٩ (المجمع العلمي اللبناني ص ٩) . وقد قسم المجمع الى عدة لجان علمية ، واصدر عام ١٩٣٠ نشرة بعنوان « المجمع العلمي اللبناني » بين فيها نظامه الداخلي وتاريخه منذ انشائه حتى صدور هذه النشرة (وهي النشرة التي انبأ المؤلف بها الاستاذ كوركيس عواد)

٨ ـ فات المؤلف وهو يستعرض في مقدمة كتابه مجامع البلدان العربية ان يشير الى « المجمع العلمي الاردني » الذي مات وهو جنين ، فقد صدرت في سنة ١٩٢٤ نشرة جاء فيها ان الامير عبد الله اصدر امره بتأسيس مجمع علمي في عمان وانتخب الشيخ سعيد الكرمي رئيسا له والسادة : رضا توفيق بك ، والشيخ مصطفى الغلاييني ، ورشيد بك بقدونس ، ومحمد بك الشريقي اعضاء (مجلة المجمع العلمي العربي م ـ ٤ حـ ١ ص ٤٦) ثم لم نعد نسمع شيئا عن اخبار هذا المجمع .

٩ ـ عرض المؤلف في الصفحة الثالثة والثلاثين « للجنة الاصطلاحات العلمية » التي افتتحت ببغداد سنة ١٩٢٦ ، والتي اطلق عليها الاب انستاس ماري الكرملي « المحفى العراقي » . وذكر (أي المؤلف) أنها ما لبثت ان عصفت بها ريح الضياع ، فاتت عليها من جذورها وانفض سمارها ، ولم يشر الى جهودها على الرغم من انها لا تقل شانا عن الجمعيات الاخرى التي وضح نشاطها . وهذه اللجنة عقدت اجتماعها الاول بمبنى وزارة المعارف في ٧ اكتوبر (تشرين الاول) سنة ١٩٢٦ ، ثم تابعت اجتماعاتها مرة كل اسبوع (« المحفى العراقي الجديد ، والمحافي العراقية في التاريخ » مقال لرفائيل بطي انظر « مجلة لغة العرب » م ـ ٤ ص ٣٩٨) لكنها انفضت بعد فترة وجيزة (راجع سبب انفضاضها في مجلة لغة العرب م ـ ٥ ص ٦١) .

وقد وضعت اللجنة طائفة من المصطلحات في علمي الرياضة والطبيعة ، بعد ان رسمت لنفسها خطة تسير عليها . واصدرت نشرة (النشرة الاولى سنة ١٩٢٦) حوت : امر وزارة المعارف بتكوين اللجنة، وانتخاب اعضائها ، ومنهجها وخطتها العلمية في وضع المصطلحات وطائفة من المصطلحات في علمي الرياضة والطبيعة وضعتها اللجنة مع مقابلها باللغتين الفرنسية والانجليزية .

١٠ ـ وذكر المؤلف ان اعضاء هذه اللجنة اربعة هم : طه الراوي (الرئيس) ومعروف الرصافي ، وعبد اللطيف الفلاحي ، والاب انستاس الكرملي ، في حين انهم سبعة يرأسهم « معروف الرصافي » لا « طه الراوي » والثلاثة الاخرون هم : عزالدين علم الدين ، والدكتور امين المعلوف ، ورستم حيدر . وكان سكرتير الشرف رفائيل بطي (لجنة الاصطلاحات العلمية « النشرة الاولى » ص ٣) .

وبعد : فهذه بعض ملاحظات على كتاب « المجمع العلمي العراقي : نشأته ـ اعضاؤه ـ أعماله » اردت ان يتداركها المؤلف عند اعادة طبعه ، ليخرج من ثوب اقرب الى الكمال . وارجو ان يتقبلها بصدر رحب يتفق وجهده العظيم الذي بذله في اعداد مؤلفه .

القاهرة

ضاحي عبد الباقي
محرر بمجمع اللغة العربية



● تلفت اليمام ـ مجموعة شعرية ـ علي شلق ـ ٢٠٨ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة سميا (؟) ـ (صدر في بيروت) .

● وادي النمل ـ مسرحية ـ تاليف علي شلق ـ ٩٦ صفحة مطبعة سميا (؟) ـ (صدر في بيروت) .

● رباعيات عمر الخيام ، الشاعر الفيلسوف والرياضي الفلكي الشهير ـ بقلم توفيق مفرج ـ الطبعة الخامسة ـ ١٢٨ صفحة ـ حجم كبير ـ مزين بلوحات فنية ـ منشورات عويدات ببيروت ـ (المطبعة ؟)

● غرام المتنبي بخولة اخت سيف الدولة ـ تاليف توفيق مفرج ـ ١٤٠ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة ديب للطباعة والفنون الجميلة (؟) ـ (صدر في بيروت) .

● تاريخ ابن الفرات لناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات ـ عني بتحرير نصه ونشره الدكتور حسن محمد الشماع ـ المجلد الرابع ـ الجزء الاول ـ ٢٨٨ صفحة ـ حجم كبير ـ ساعدت جامعة بغداد على طبعه ـ مطبعة حداد بالبصرة العراق .

● فن القصة والمقاومة ـ تاليف الدكتور جميل سلطان ـ ٢٠٨ صفحة ـ الكتاب الاول من سلسلة فنون الادب ـ منشورات دار الانوار ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● المدخل الى فلسفة ابن سينا ـ تاليف تيسير شيخ الارض ـ ٥٢٢ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الانوار ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● المدخل الى الهندسة اللااقليديه ـ تاليف كابي دردريان ـ ١٦٤ صفحة ـ حجم كبير ـ المطبعة التعاونية بدمشق .

● ايام في الفيتنام ـ تاليف المحامي حسيب نمر ـ ٢٧٢ صفحة ـ منشورات دار الى الامام ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● بين المسرح والسينما ـ تاليف يوسف العاني ـ تقديم احمد حمروش ـ ١٥٤ صفحة ـ حجم كبير ـ سلسلة من الشرق والغرب ـ منشورات الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة .

● الطير في حياتنا وتراثنا ـ تاليف المحامي عبد القادر عياش عضو لجنة الفنون الشعبية في سورية ـ ٩٨ صفحة ـ حجم كبير ـ الكتاب رقم ١٥ في سلسلة تحقيقات فولكلورية من وادي الفرات ـ طبع في دير الزور في سورية (لم يذكر اسم المطبعة).

● صلاح الدين الايوبي ، قصة الصراع بين الشرق والغرب ـ تاليف قدري قلعجي ـ ٦٦٤ صفحة ـ حجم كبير ـ مزين بالرسوم واللوحات التاريخية ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ شركة الطباعة الحديثة بيروت .

● زكي قنصل شاعر الحب والحنين ـ تاليف عبد اللطيف اليونس ـ ١٩٠ ـ صفحة ـ طبع في بونس ايرس بالارجنتين .

● اضواء جديدة على جبران ـ تاليف توفيق صايغ ـ تصميم الكتاب لراجح مصطفى شبلي ـ ٢٢٨ صفحة ـ مع عدة لوحات لجبران خليل جبران ـ طبعته ونشرته الدار الشرقية ببيروت بالاتفاق مع مجلة « حوار » .

● العصفور الاحدب ـ مسرحية ـ تاليف محمد الماغوط ـ تصميم الكتاب لراجح مصطفى شبلي ـ الغلاف لوضاح فارس ـ ١٠٨ صفحات ـ سلسلة كتاب حوار ببيروت ـ منشورات الدار الشرقية ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● عرس الزين ـ رواية وسبع قصص ـ تاليف الطيب صالح ـ صمم الغلاف ورسم الرسوم ابراهيم الصلحي ـ ١٧٢ صفحة ـ سلسلة كتاب حوار ببيروت ـ منشورات الدار الشرقية ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● معبد الشوق ـ مجموعة شعرية ـ فؤاد الخشن ـ ١٦٠ صفحة ـ منشورات مؤسسة المعارف ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● ديوان الشيخ احمد تقي الدين ـ جمعه ونشره المحامي حليم تقي الدين ـ تقديم فؤاد افرام البستاني ـ تصدير نديم آل ناصر الدين ـ ٣١٠ صفحة ـ حجم كبير ـ مطابع مؤسسة البحيري اخوان بيروت

● مفكرون وادباء من خلال آثارهم ـ تاليف انور الجندي ـ ٢٩٦ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دارالارشاد بيروت ـ مطابع وزنكوغراف العصري(؟)

● ديوان احمد الفقيه حسن ـ اشرف على طبعه وعلق عليه بقلمه الشاعر نفسه ـ صمم الغلاف فرج فليفل ـ ٣٩٨ صفحة ـ حجم كبير ـ طبع على نفقة وزارة الاعلام والثقافة الليبية ـ مطابع وزارة الاعلام والثقافة في طرابلس بليبيا .

● التبغ في حياة الناس ـ تاليف المحامي عبد القادر عياش عضو لجنة الفنون الشعبية في سورية ـ ٩٨ صفحة ـ حجم كبير ـ الكتاب ١٦ في سلسلة تحقيقات فولكلورية من وادي الفرات ـ مطابع الف باء والاديب بدمشق

● تهذيب الاخلاق لابي علي احمد بن محمد مسكويه ـ حققه قسطنطين زريق الجامعة الامريكية في بيروت ـ ٢٤٨ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات الجامعة الامريكية في بيروت ـ مطبعة سليم ببيروت .

● التوثيق التربوي : مفهومه ، اهدافه ، مؤسساته ـ اعداد يوسف اسعد داغر خبير اليونسكو للتوثيق التربوي لدى وزارة التربية والتعليم في السودان ـ ٥٢ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات مركز التوثيق التربوي رقم ١ في وزارة التربية والتعليم بالسودان ـ مطبعة مكتب النشر بالخرطوم .

● Les Bruits Anciens-Poèmes- par Gérard Le Gouic - 76 pages - gd. f. - Guy Chambelland, Editeur-Bastide d'Orniol, Gard, France.

● Margelles de la Nuit - Poèmes et Chansons-par Elie Richard-176 pages - Les Cahiers des Images de Paris - Imprimerie du Cantal, France.

● Traduit des Fleurs - Poèmes - par Henry Dalby - Post Face de Elie Richard - 192 pages - Les Cahiers des Images de Paris - Imprimerie Editions Subervie, France.

● Au Pas Feutré du Songe - Choix de vers et de prose - par Emmanuel Lochac - Introduction par Elie Richard - 240 pages - Les Cahiers des Images de Paris Imprimerie du Cantal à Aurillac, France.

● La Rue des Paradis - par Gabriel Ursin Langé-Préface de Elie Richard - 144 pages - Les Cahiers des Images de Paris - Imprimerie du Cantal à Aurillac, France.



كيف ينقل الدم
من انسان الى انسان بدون اي خطر
لبنان بحاجة سنويا الى عشرة الاف متبرع

عمليات نقل الدم كانت تجري ، في ما سلف ، بصورة مباشرة ، اي ان الدم كان ينقل مباشرة من ساعد الرجل المتبرع الى ساعد الرجل المريض المحتاج .

اما اليوم ، فقد تبدلت الطريقة مع تقدم العلم ، اذ يسحب الدم من المتبرع الى زجاجة معقمة تحوي سائلا مانعا للتخثر ثم ترسل هذه الزجاجة الى سرير المريض فينقل اليه الدم بواسطة انبوب معد لذلك .

واذا لم تكن الحاجة الى الدم ملحة ومستعجلة ، فانه يوضع في براد خاص له حرارة معينة حيث يحفظ واحدا وعشرين يوما بدون ان يفسد .

وهذا البراد موجود في مركز نقل الدم التابع للصليب الاحمر اللبناني .

وقد سألنا القيمين عليه عن مصير الدم الذي لا يستهلك بعد مضي الواحد والعشرين يوما فابتسموا واجابوا :

— لم يحدث امر كهذا بعد ... ان الحاجة الى الدم مستمرة .

قلنا : والدم الذي من الفئات النادرة ؟

اجابوا : هذا لا نضعه في البراد ، انما نأخذه من المتبرعين مباشرة لدى حاجتنا اليه ، فعندئذ نتصل بهم ونحصل منهم على المطلوب .

اما تحضير عملية نقل الدم ، فانه يبدأ بسحب نموذج من دم المريض ، ويقوم مركز النقل بتحديد فئته وزمرته ، وفي ضوء النتيجة يأخذ الطبيب المداوي من مؤونة الدم المختزنة زجاجة دم من فئة دم المريض ، وقبل حقن المريض يجب التثبت من التجانس بين دم المريض ودم المتبرع ، وذلك بمزج كمية من كل من الدمين .

قلنا : وهل من خطر وراء عملية سحب الدم ؟

اجابوا : ليس هناك من خطر على الذي يقدم دمه اذا استوفى الشروط المطلوبة وخضع لمعاينة طبية قبل سحب الدم . فكل انسان ، رجلا كان ام امرأة ، عمره بين ٢٠ و ٥٥ سنة ويتمتع بصحة عادية ، يستطيع ان يعطي من ٢٠٠ الى ٥٠٠ سم ٣ من دمه وهو في مأمن من كل خطر . وعلى الطبيب ان يعاين معطي الدم معاينة دقيقة كاملة تشمل فحص الضغط ونسبة الهيموغلوبين وعليه ان يقصي المصابين بالامراض القلبية وذوي الضغط العالي والحبالى والمولدات اللواتي لم ينقض على وضعهن اكثر من تسعة اشهر .

وبالاضافة الى ذلك ، من الافضل ان يكون معطي الدم قد تناول وجبة خفيفة من الطعام ، فالوجبة الثقيلة، كالصوم الكامل ، يحدثان احيانا بعض الازعاج ، ومن المستحسن ان يظل المعطي مستلقيا على ظهره عشر دقائق اثر سحب الدم منه ، ثم يعود بعد ذلك الى اعماله كالمعتاد .

قلنا : هنالك اناس يبيعون دمهم .

اجابونا : هنا في مركز نقل الدم التابع للصليب الاحمر لا نشتري دما ، بل نحن نتكل على المتبرعين به . فالمتبرع يجهر بأوضاعه وامراضه قبل اعطاء دمه ، ومن الضروري التثبت من ذلك كي لا ينقل دم ما امراضا معدية الى آخذه .. ثم ان هنالك من يبيعون دمهم اكثر من مرة في النهار الواحد ومن غير ان يذكروا امراضهم .

قلنا : وهل عدم التحوط لكل هذه الامور وعدم اللجوء الى التدابير الاحترازية من شأنهما ان يؤديا الى حوادث خطيرة ؟

اجابونا : بالطبع ... وبالفعل وقعت حوادث مثل هذه . لذلك نحن لا نقبل الا المتطوعين الساعين وراء الخير المجرد ووراء خدمة الانسانية بدون اجر ولا ثمن ولا مغنم ولا اي كسب مادي . فتجارة الدم عندنا ممنوعة . ولكن هذا لا يعني ان كل الذين يبيعون دمهم من الصنف المضر ، بل على العكس فقد ادوا في بعض الفترات خدمات قيمة .

ان بيروت بحاجة كل سنة الى خمسة الاف متبرع دم . ولبنان الى عشرة الاف ، اي الى متبرع واحد لكل مئة شخص .

فليكن كل واحد منا هذا الواحد بالمئة !

بنك الدم

- بنك الدم هو المصرف الوحيد الذي ودائعه تضحية ومدفوعاته محبة
- كل المصارف تقبض وتدفع فوائد باستثناء بنك الدم
- اعط دمك بابتسامة تصبح حياتك كلها زهورا
- نقطة الدم التي تتبرع بها تتحول الى بحر من الامل
- بنك الدم هو باب النجاة الذي لا يغلق في وجه احد
- عطاء الدم اكبر دعامة للوحدة الوطنية والانسانية لانه يخلق اخوة بالدم
- بنك الدم لا يفلس الا بافلاس الكرة الارضية من الانسانية
- لا تغلق في وجهك اليوم ما قد يصبح املك الوحيد غدا
- تبرع بالقليل من دمك اليوم فربما احتجت الى الكثير من دم

قريبك غدا

- لا يعطيك احد دما اذا لم تبادل غيرك بالمثل
- عندما تتبرع بدمك تذكر ان نسيبا او صديقا قد يستفيد منه
- عطاء الدم محبة شاملة توصل الى السلام

التبــرع بالــدم

- من يعط دم قلبه يكن قلبه كبيرا
- التبرع بالدم سلسلة محبة لا تنتهي
- تبرع بدمك ولا تندم فالتضحية بالقليل خير من ألم الندامة
- لا تنتظر غدك لعمل الخير فربما احتاجك الخير وانت تفعله
- تبرع بدمك مرة واحدة في الحياة حتى لا تندم طول الحياة
- الاخوة في الدم الموهوب كالاخوة في طبيعة الدم
- من يتبرع بجزء من دمه ليجدد الحياة في جسم غيره يساهم في عمل الخلق
- عطاء الدم ضروري كتناول الطعام
- كل خدمة للانسانية هي خدمة لله
- عطاء الدم لا يصح ان يصبح تجارة لانه لا يقدر بثمن مادي
- كل خدمة للانسانية تلقى اجرها عند الله
- دم الانسان يصبح بقيمة الحياة ان هو ساهم في بعث حياة
- غيرك اليوم بحاجة اليك وقد تكون انت غدا بحاجة الى غيرك
- لا تتبرع بدمك مرغما لئلا تقلل من قيمة بادرتك

•

هذا هو الحوض الثالث في مرفأ بيروت

تطـور دائـب يواجهـه تخطيط جـريء

كان اتساع النشاط في مرفأ بيروت ، وازدياد ضغط حركة التصدير والاستيراد فيه الحافز الذي دفع الحكومة الى ان تصدر في عام ١٩٦١ قرارا بانشاء الحوض الثالث وتخصيص اعتماد يبلغ خمسة وستين مليون ليرة لهذه الغاية ، لمواجهة هذا الوضع .

وكان مرفأ بيروت يتألف من حوضين اثنين يضيقان وتضيق ارصفتهما ومنشآتهما ، وتجهيزاتهما عن استيعاب حجم الحركة الدائبة التي تزيد مع الايام اتساعا ، اضف الى هذا ان الحوضين كان يضمان قاعدة ونادبا لليخوت يخففان من طاقة استيعاب الحوضين ويحدان من امكانياتهما من ناحية المساحة ، والقدرة على تلبية متطلبات المرفأ .

وبعد صدور قرار الحكومة بانشاء الحوض الثالث بدأ العمل في آب عام ١٩٦٢ حثيثا لانجازه بقدر ما تسمح الامكانات الفنية ، والمادية . وقد تم حتى اليوم انجاز الاشغال التي تتعلق بالمنشآت السفلى ، كردم البحر ، وانشاء المكاسر ، وتوسيع الارصفة ، واصبحت مواصفات الحوض كما يلي :

- طول المكاسر ٢١٠٠ متر وكانت ١٣٠٠ متر للحوضين الاول والثاني
- مساحة الاحواض ٦٥ هكتار وكانت ٤٠ هكتارا للحوضين
- طول ارصفة ٣٢٠٠ مترا وكانت ٢٠٠٠ متر
- المزلقان ١٠٠٠ طن وكانت ٤٥٠ طنا
- عدد البواخر ٣٠ وكانت ١٨ باخرة
- البواخر الملاصقة للارصفة ٢٠ وكانت ١٠ بواخر
- حركة البضائع السنوية مليونان ونصف المليون طن وكانت مليونا و ٦٠٠ الف طن .
- مساحة المنطقة الحرة مليونان و ٢٥٠ الف متر وكانت مليونين و ١٢٥ الف متر .

وبهذا يتبين انه تم تطويل مكسر المياه بطول ٨٠٠ متر ، وانشاء ارصفة جديدة في الحوض الثالث بطول ١٣٠٠ متر ، على اعماق تتراوح بين ٥ ، ١٠ و ١٣ مترا ، واعادة انشاء الحوض الاول ويبلغ طول ارصفته ٩٠٠ متر ، وردم مساحة نصف مليون متر مربع كسبت على البحر . واستنفدت هذه الاشغال جميعا ٦٥ مليون ليرة لبنانية . وبالاضافة الى هذه الاشغال فان الارصفة الجديدة تجهز بشبكات الطرق والسكك الجديدة ، والماء ، والمجاري ، والكهرباء والهاتف . وتم كذلك بناء ست مستودعات على الارصفة مساحة كل منها ٤٤٠٠ مترمربع تقريبا ، فضلا عن عدد من مستودعات المواد الملتهبة .

وبانتهاء المنشآت السفلى لحوض مرفأ بيروت الثالث ، تبدت الحاجة الى اكماله بمنشآت عليا في مرحلة ثانية من تحسين المرفأ تشمل تزويده بالآلات الرافعة ، وانشاء بقية المستودعات والطرق ، والمباني الادارية ، والمحطات البحرية الخاصة ببواخر السياحة الكبرى ، وما الى ذلك .

وهذه المرحلة قيد البحث حاليا ، وسيباشر بالتنفيذ في القريب . وتجرى حاليا كذلك دراسات تتعلق بتجهيز الحوض الثالث بأهراءات للقمح بسعة ٦٠ الف طن مع امكان توسيعها حتى تصبح قادرة على استيعاب ١٢٠ الف طن . وتتطلب هذه المرحلة ٣٠ مليون ليرة اضافية توزع على اعمال تجهيز في مرفأ بيروت ومرفأ جونيه .

الا ان حركة المرفأ ماضية مع الايام في الاتساع ، والتزايد مما سوف يستدعي اما مواجهة انشاء حوض رابع ، او زيادة تجهيزات المرفأ الحالية . وقد كلف مجلس الوزراء مجلس المشاريع الانشائية بوضع دراسة شاملة تتضح فيها خطوط السياسة المرفئية التي يجب اتباعها بشكل متصاعد ، متطور ابدا مع تصاعد وتطور الارقام .

•

جسر الدامــور الجديد

يسهل المواصلات وينقل العمران الى المنطقة الجنوبية لبيروت

دشن معالي وزير الاشغال العامة ، الاستاذ فؤاد البزري ظهر يوم السبت في ٢٠ ايار ، جسر الدامور الجديد ، الذي سيلتقي مع اوتوستراد بيروت ـ صيدا ، وهو من

المشاريع الانشائية الهامة التي تقوم الدولة بتنفيذهـا ، ضمن امكانات الموازنة ، لمعالجة زحمة السير . وتسهيل المواصلات وتنمية القطاعين السياحي والزراعي .

الجسـر القديـم يعرقـل

وكان جسر الدامور القديم ، في ضيقـه وزحمة السير عليه ، يعرقل حركة المواصلات اذ انه يؤمن بصعوبة قصوى خطي سير فقط للسيارات الصغيرة ، وخط سير واحد للشاحنات . واذا عرفنا ان معدل كثافة السيـر اليومي ، كان في عام ١٩٦٦ ، في حدود ٧ آلاف سيارة في الاتجاهين ، وان المعدل المرتقـب في عام ١٩٨٥ ، سيكون في حدود ٣٠ الف سيارة في اليوم ، لتبين لنا ، اهمية الجسر الجديد ، الذي يتسع سطحه لمرور ثلاث سيارات في كل اتجاه وبالسرعة القصوى المحددة للسير على الاوتوستراد .

والجسـر الجديد يسهـل

والجسر الجديد يسهل حركة السير بشكل ايجابي اذ انه يستوعب ٦ سيارات دفعة واحدة ــ كما قلنا ــ ولا يعود هناك مجال للانتظار والعرقلة .

يبلغ طول الجسر الجديد ١٠٠ متر بعرض ٣٢ مترا وارتفاع ٦ امتار من جهة و ٧ امتار من الجهة المقابلة . ويقوم الجسر على خمس ركائز . ثلاث ركائز وسطى ، عرض اساس كل ركيزة منها ، اربعة امتار ونصف المتر ، وارتفاعها متر وثلاثة ارباع المتر ، وركيزتان في طرفي الجسر ، بنيت جميعها من الاسمنت المسلح مع واجهة من الحجارة المقصوبة . وهذه الركائز ، مثبتـة على طبقة تنخفض عن مستوى مجرى النهر بحوالـي ٨ امتار . وللجسر الجديد ، اربع فتحات لانسياب مياه نهر الدامور ، وطول الفتحة ١٩ مترا وقد بنيت بشكل يتلائم مع مجرى النهر ، اما سقف الجسر فيتألف مـن جسور طولية ، طول الواحد منها ١٩ مترا تقوم على ارتكاز حر ، ومـن جسور عرضية ترتكز عليها بلاطة الجسـر . وقد بني السقف ، من الباطون المسلح . ويأتي جسـر الدامور بالنسبة لكبره في المرتبة الرابعة بعد جسري المعاملتين ، وجسر الاولي . وقد شقت وصلة طريـق « مؤقتة » طولها ٥٠٠ متر تصل طريق صيدا الحالية بالجسر ، لغاية ما يتم اوتوستراد بيروت ــ صيدا ، الذي سيمر بالجسر الجديد . والوصلة الجديدة تحل ازمة السير مئة بالمئة ، اذ انهاذات اتجاهواحد ،والطريقالقديم هوللاتجاهالمعاكس.

اكلاف الجسر الجديد

بلغت اكلاف الجسر الجديد ٧٠٠ الف ليرة للاعمال التنفيذية ، واكلاف وصلة الطريق المؤقتة ٩٠ الف ليرة للاشغال و ٣٠ الف ليرة للاستملاكات . وقد انتهـت جميع الاعمال في الشهر الخامس من العام الحالي .

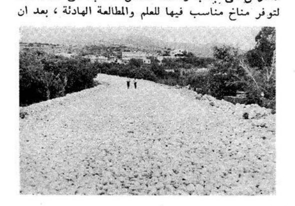
فوائد الجسر الجديد

لا شك في ان لجسر الدامور الجديد ، فوائد عديدة، تشمل قطاعات مختلفة . فلجهة المواصلات السريعة ، انه يوفر في المحروقات ، ويسهل حركة السير الى اقصى حد ، حيث كانت ارتال السيارات في الماضي ، مضطرة للوقوف عند طرفي الجسر القديم في كل مرة تمر شاحنة عليـه . وتكتمـل فوائـد الجسر الجديـد عند اكتمال اوتوستراد بيروت ــ صيدا .

ولجهة السياحة ، فان سهولـة المواصلات علـى اوتوستراد بيروت ــ صيدا والجسر الجديد ، يحمـل السياح وقوافل سياراتهم على التوجه الى المناطق الاثرية والسياحية في الجنوب، فتنتعش المنطقة من الداخل السياحي.

ولجهة القطاع الزراعـي ، فان الجسـر الجديد واوتوستراد بيـروت ــ صيدا ، يسهـلان نقل الانتاج الزراعي والحيواني من المنطقة الجنوبية الى العاصمة ، مثل الفاكهة والخضار والحمضيات والدواجن والبيض والحليب وخلافها ، وبالتالي تنخفض نسبـة اكلافها ، خاصة ، وان مشروعي القاسمية والليطاني للري ، قـد ساعدا على توسيع الرقعة الزراعية بين صيدا وصور ، واصبح « ثقل » النقل يقع على الشاحنـات والطرق ، بسبب عدم صلاحية النقل الحديدي في الوقت الحاضر.

اما لجهة التنمية العمرانية ، فان الجسر الجديـد والاوتوستراد ، سيحققان مناطق عمرانية جديدة جنوبي العاصمة ، على غرار ما حققه اوتوستراد المعاملتين فـي منطقة انطلياس والضبية التي اصبح العمران فيهمـا متكاتفا بفضل مرور الاوتوستراد بالقـرب منهمـا .. والعمران في جنوبي بيروت آخذ بالنمو والامتداد باتجاه خلدة نظرا لوقوع اطول واجمل شاطىء في تلك المنطقة ولمرور اوتوستراد بيروت ــ صيدا بجانبها . وقد اخذت المدارس الى جانب وكالات السكن ، تتجه الى تلك المنطقة لتوفر مناخ مناسب فيها للعلم والمطالعة الهادئة ، بعد ان



كادت العاصمة تختنق بزحمة ابنيتها وسكانها وضوضاء سياراتها ..

وعلى ذلك، فان جسر الدامور الجديد، واوتوستراد بيروت - صيدا، سينقلان العمران الى منطقة الجنوب بالسرعة المتمادية، وهذه احدى حسنات المشروع، بفضل سياسة الدولة الانشائية والانمائية، الحكيمة، التي تخطط وتهدف الى انماء مرافق البلاد وانعاش اقتصادها في سبيل استقرار ارسخ وحياة افضل لجميع المواطنين

ما هـو خليج العقبة ؟

جغرافيا وتاريخيا وسياسيا

ان خليج العقبة هو جسم مائي طوله ١٠٠ كيلومتر تحيط به اراضي الجمهورية العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية وفي نهايته المملكة الاردنية الهاشمية . وهناك على هذا الخليج مدينة جديدة اسمها « ايلات » تحتلها اسرائيل وقد جعلت منها في السنوات الاخيرة مرفأ .

ويتصل هذا الخليج بالبحر الاحمر عن طريق مضيق تيران الذي تنتصب فيه جزيرتان عربيتان هما « تيران » و « صرافير » . والملاحة في هذا المضيق تصلح في رقعة صغيرة منه لا يتعدى عرضها النصف ميل وهي بمحاذاة موقع شرم الشيخ العربي في سيناء .

وجدير بالذكر ان احتلال اسرائيل لمرفأ « ايلات » في اول عام ١٩٤٩ كان في حد ذاته احتلالا عدوانيا . حدث بعد وقف اطلاق النار بين قوات الاردن والقوات الصهيونية وكانت آنذاك قرارات مجلس الامن المتعددة تنص نصا صريحا على ان اي خرق للهدنة لا يجوز ان يكسب الفريق الذي يقوم به اية مكاسب سياسية او عسكرية .

وعندما وقعت اتفاقية الهدنة الاردنية الاسرائيلية بعد ذلك بقليل نصت هي ايضا على ان خطوط الهدنة والتوزيع الجغرافي المبني عليها انما هو مؤقت وغير نهائي ولا يلزم اي فريق من الفريقين بحقوق او يلقي عليه تبعات قانونية في المستقبل .

اذن فان احتلال اسرائيل لايلات ثم اقامتها مرفأ في ذلك الموقع انما جاء خرقا صريحا لوقف القتال وكان كسبا سياسيا وعسكريا لا تعترف به نظم الامم المتحدة ولا يصح ان يكون اساسا لاي تقييم قانوني لوضع خليج العقبة او لحقوق الفرقاء فيه .

بناء على هذا فخليج العقبة هو خليج عربي ومضيق تيران المؤدي اليه هو بالتالي مضيق عربي وليس ممرا دوليا .

ومما يعزز هذا، ان العرف التاريخي ايضا جعل المر والمضيق مياها عربية لا مياها دولية، فلم يسبق في التاريخ ان اعتبر خليج العقبة او مضيق تيران مياها دولية . وليست هناك اية اتفاقية او معاهدة دولية تحدد طبيعة الخليج او المضيق تحديدا مخالفا لهذا . ثم ان مصر مارست بالفعل سلطاتها الكاملة وسيادتها الكاملة على مضيق تيران والملاحة فيه منذ قيام الدولة الصهيونية وحتى عام ١٩٥٦ دون ان يصدر عن اي مرجع دولي اي شك بحق مصر في هذه الممارسة او انكارا لها .

فالوضع القانوني ازداد قانونية بالممارسة الفعلية التي لم تلق اي اعتراض والامم المتحدة لم تصدر يوما من الايام عن طريق اي هيئة من هيئاتها اي قرار ينكر على مصر حقها في ممارسة السيادة في المضيق .

ومعروف انه في اعقاب العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ رابطت قوات الامم المتحدة في موقع شرم الشيخ المشرف على المضيق بدلا من القوات المصرية . فان عدم ممارسة مصر لسيادتها بعد ذلك لم يكن تخليا منها عن تلك السيادة وانما لان وسائل الممارسة كانت قد حجبت عنها مؤقتا . وقد سعت اسرائيل من تشرين الثاني ١٩٥٦ حتى شباط ١٩٥٧ ان تستحصل من الامين العام للامم المتحدة او من الجمعية العامة على نطق ما يدل مباشرة او مداورة على ان وجود القوات الدولية واحتجاب القوات المصرية يؤثر في الوضع القانوني للمضيق او في سيادة مصر ولكنها فشلت فشلا تاما، بل على العكس من ذلك فان همرشولد اكد مرارا ان وجود القوات الدولية ليس له اي اثر في الحقوق القانونية المنبثقة عن سيادة مصر في المنطقة .

وانما الذي حصلت عليه اسرائيل انحصر في تأكيد اميركي تضمنته مذكرة اميركية الى اسرائيل وجاء فيها ان اميركا تعتبر المضيق ممرا دوليا وبديهي ان هذا التصريح تنحصر قيمته القانونية في اميركا نفسها وليس في الفرقاء الاخرين . انه اجتهاد اميركي وليس تشريعا دوليا .

وبمستطاع اميركا اذا شاءت ان تظل مناقشة القضايا القانونية على المستوى القانوني وعن طريق الاجهزة الصالحة بمستطاعها ان ترفع القضية الى محكمة العدل الدولية او ان توعز الى اسرائيل ان تفعل ذلك بصفتها طرفا في هذا النزاع . ومعلوم ان كلا من اميركا واسرائيل والجمهورية العربية المتحدة قد وقعت على المادة الاختيارية من نظام محكمة العدل الدولية الذي تقبل فيه كل منها بحق المحكمة في النظر في اي نزاع يرفعه اليها اي فريق اخر وقع تلك المادة .

اي ان العقبة او بالاحرى الصعوبة التي كانت قد تنشأ في طريق التقاضي امام المحكمة قد ازيلت يوم وقعت اسرائيل والجمهورية العربية المتحدة على التصريح الذي تنص عليه المادة ٣٦/ من نظام محكمة العدل الدولية .

وفي وسع اميركا ايضا ان تلجأ الى طريقة مشروعة اخرى، وهي حمل الجمعية العاملة او مجلس الامن على التوجه الى محكمة العدل الدولية في استشارة قانونية بشأن وضع المضيق والخليج .